شذرات
من تاريخ
حَضرَموت

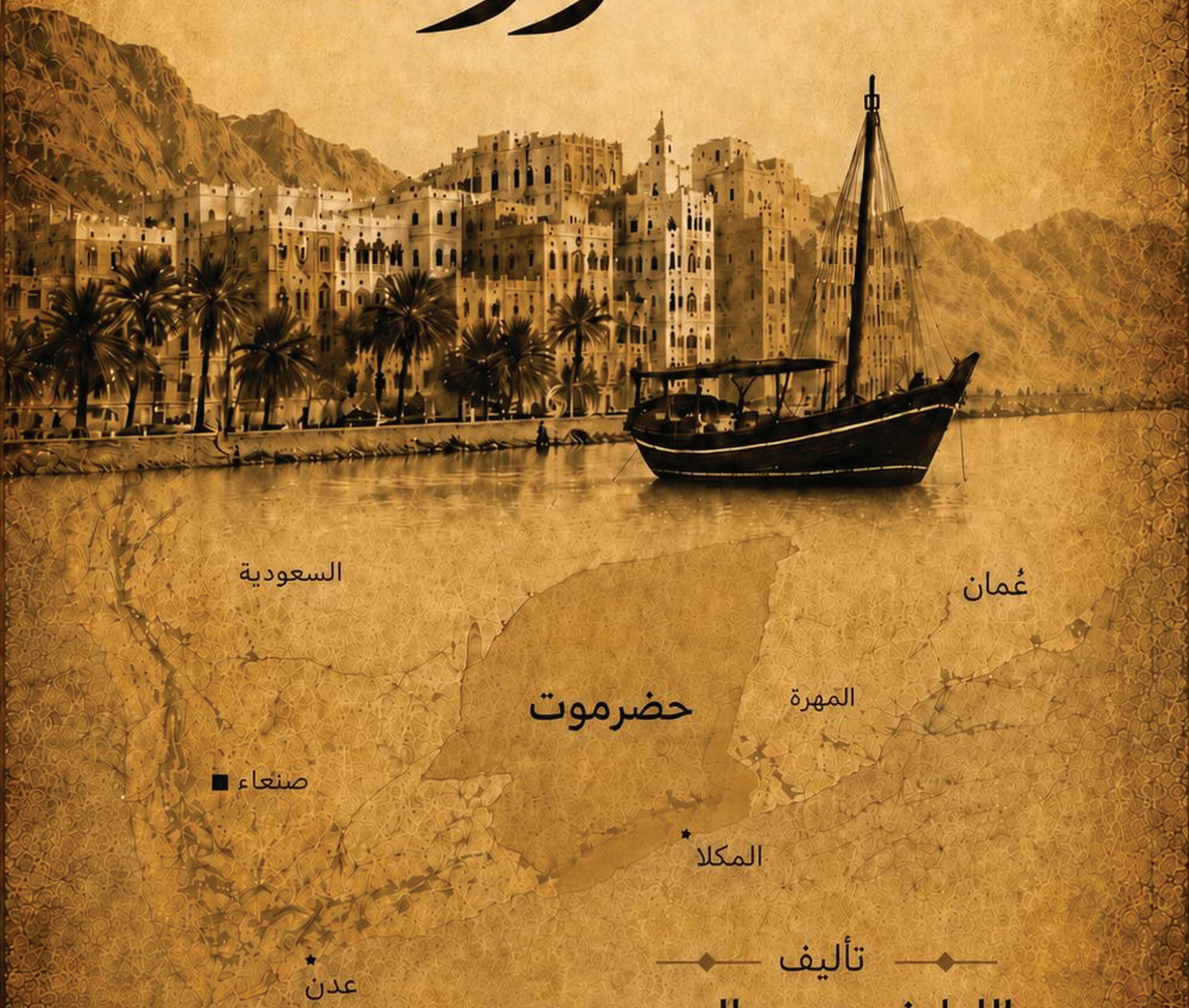

تأليف
عبداللطيف سعيد العمودي

شذرات

من تاريخ

حَضرَموت

تأليف

عبداللطيف سعيد العمودي

ⓗ عبداللطيف سعيد العمودي ، ١٤٤٨هـ

العامودي ، عبداللطيف سعيد محمد
شذرات من تاريخ حضرموت. / عبداللطيف سعيد محمد العامودي
- ط١. .- جدة ، ١٤٤٨هـ
٢٥٤ ص ؛ ١٧,٥×٢٣ سم

رقم الإيداع: ١٤٤٨/٦٦٨
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٦-٦٧٣٧-٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفهرس

الباب الأول

مقدمة ٨
حضرموت ١٥
تمهيد ١٦
أسباب تسمية حضرموت ٣١
الأهمية الجغرافية لحضرموت ٤١
حدود ومناخ حضرموت ٥٥
أهم مدن حضرموت ٦٣
الأنشطة الرئيسة لحضرموت ٨٥
دخول الإسلام لحضرموت ٩١
بماذا يمتاز الحضارمة ؟ ٩٩
هجرة الحضارم ١٠٣
شذرات موجزة عن الصراعات للسيطرة على حضرموت ١٢١
دور بريطانيا في إحلال السلام بين الدويلات والقبائل المتنازعة ١٣٥
الخلاصة ١٤٤

الباب الثاني

وادي دوعن ١٥٥
تمهيد ١٥٦
الحياة العلمية في وادي دوعن ١٦٩
الحرف والمهن بوادي دوعن ١٧٥
الحياة الاجتماعية في وادي دوعن ١٨٥
مطبخ أهل وادي دوعن ١٨٩
مكانة الزَّامل والشعر في الوادي ١٩٥
القناصة موروث قديم ٢٠١
فن العمارة في وادي دوعن ٢٠٩
قُرى وادي (دوعن) الرئيسة ٢١٧
دوعن أرض المهاجرين ٢٣٣
خاتمة ٢٤٢
المراجع ٢٤٤

مقدمة

لقد سبقني للكتابة عن حضرموت ووادي (دوعن) كثيرون، وأحسبهم أجدر وأعرف مني بالكتابة عن تلك المعالم والأعلام، ولا أحسبني سأضيف شيئًا كثيرًا عمن سبقني. وإن كان تاريخ دوعن قد أُغفل وأُهمل كثيرًا عن مرحلة من التاريخ، حيث يقول مؤرخ الوادي الثقة المحقّق (علوي بن طاهر الحداد) في كتابه (الشامل في تاريخ حضرموت): **"فإن تاريخ الجهة الدوعنية، وولاتها، وحوادثها، وفقهائها، وصلحائها قد أُهمل إهمالًا غريبًا"**. ولا يوجد مصادر يمكن الاعتماد عليها عن تاريخ وادي دوعن خلال الفترة الزمنية من القرن الأول الهجري إلى القرن التاسع الهجري تقريبًا. كما ذكر ذلك الدكتور عبدالله قنيوي الأستاذ الجامعي بكلية التربية جامعة حضرموت، في مقال له تحت عنوان (الحياة العلمية في وادي دوعن حتى نهاية القرن الرابع عشر)؛ ويذكر (د. قنيوي) أيضًا في كتابه (أخبار دوعن في صحيفة الرائد ١٩٦٠-١٩٦٤م) أن **"تاريخ دوعن على امتداده منذ العصر الجاهلي وحتى العصر الحديث لم يزل مبهمًا وفي جزئياته فجوات لم يتم ملؤها أو التنقيب عنها، وما كُتب عن تاريخ وادي دوعن من دراسات وأبحاث لا يفي بهذا الكم الكبير من الأحداث التي شهدها الوادي"**. وليس الأمر قاصرًا على حضرموت ودوعن وحدها، ولكن الأمر يعمّ اليمن بمجملها، حيث يقول الباحث (علي بن سالم بكير) في دراسته تحت عنوان (في مصادر التاريخ الحضرمي): "يدرك الباحثون في التراث اليمني عمومًا والمشتغلون بالأبحاث التاريخية خصوصًا ندرة المراجع التي يمكن الرجوع إليها والاستعانة بها في البحث والتحقيق في مثل هذه المجالات التاريخية الشائكة المسالك الحالكة الظلام ما لم يهتد الباحث فيها إلى قبس من نور يسير على ضوئه في بحثه واستنتاجه، ولذلك يجد الباحث عناء ومشقة كبيرين في سبيل ما يعرض له من مواضيع تاريخية". ويذكر (بكير) أنه حتى وإن تيسرت لك بعض المراجع فإن هذه المراجع على قلّتها وندرتها -كما سبق القول- لم تدوّن فيها الحوادث التاريخية مرتبة متسلسلة حسب وقوعها، وإنما تجيء فيها شذرات من التاريخ تذكر عرضًا في مواضع متفرقة، وليس لمثل هذه النوع من الكتب فهارس ولا عناوين في الغالب؛ ليسهل الأخذ منها والرجوع إليها عند الحاجة، فإذا كنت تبحث عن مسألة فعليك أن تقرأ الكتاب من الغلاف إلى الغلاف حتى تعثر على ما تريد.

يقول الدكتور المؤرخ (صلاح الدين المنجِّد) في مقدمته لكتاب (تاريخ حضرموت) لمؤلّفه صالح بن علي الحامد: **"ولعل حضرموت من الأقطار التي جفاها الحظ طويلًا، فلم يؤلّف عنها الأقدمون ما ألّفوه عن أقطار أخرى، فما أُلِّف عنها في الماضى ليس بكثير، وقد يكون فيه عيب، أو نقص وفير، ورغم ذلك لم ينشر ولم يقرأه الناس جميعًا، وما أُلِّف عنها في الحاضر لم يؤت الدّقة، وأعوزته أحيانًا الصحة، وشابه الخبط والتلفيق"**. ويؤيد كلام (المنجِّد) الأديب (محمد بن أبي بكر باذيب) حيث يذكر بأنه: **"طالما بحثت ونقّبت وفتّشت**

في المكتبات العامة والخاصة وفي بطون الكتب وزواياها عن كتاب أو بحث غني شامل لتاريخ منطقة حضرموت ذات المجد القديم الأثيل، والتراث العلمي الشهير، والمشهود له عند المؤرخين والكتّاب، في كثير من العصور والأحقاب، وما وجد فيها من تراث فكري وتراكم معرفي، وعن ما يجلي الغبار عن تاريخ رجالاتها الأماجد، ومجدها التالد الخالد، فلم أجد ما يشفي العليل، أو يروي الغليل".

لذا وجدتها -المؤلف- فرصة لجمع ما أمكن من مصادره المختلفة عن حضرموت ووادي دوعن، وهو جهد المقل.

أهمية دراسة التاريخ:

إن دراسة التاريخ مهمة للغاية؛ فالتاريخ يعيد نفسه وفيه من العبر والدروس ما يجعلك في غنى عن تكرار أخطاء الآخرين، بل الاستفادة منها. يقول المستشار البريطاني (إنجرامز): **"فما يعتقده الناس عن تاريخهم العظيم له أهمية خاصة في تشكيل تاريخ مستقبلهم. وقد بدا لي ذلك عن تاريخ حضرموت"**. ويقول المؤرخ (عبدالله بن حسن بالفقيه): **"من أراد أن يؤلف أو يكتب في تاريخ حضرموت فليكتب وهو بذلك مشكور الصنيع، لكن علينا أن ندرك أن الغربلة مقبلة"**. لذا فكل ما نقلته أو كتبته مشار فيه إلى مصادره وهو قابل للنقد والتدقيق والمراجعة، والقاعدة العلمية تقول: **"من أسند فقد برئت ذمته"**. ويقول المفكر الإسلامي (مالك ابن نبي): **"نحن لا نستطيع أن نصنع التاريخ بتقليد خُطى الآخرين في سائر الدروب التي طرقوها، بل بأن نفتح دروبًا جديدة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بأفكار أصيلة تستجيب لسائر المشكلات على الصعيد الأخلاقي، أو على صعيد الأفكار الفاعلة؛ لتجابه مشكلات التطور في مجتمع يعيد بناء نفسه"**.

يقول (عبدالله محمد الحبشي) في تقديمه لكتاب (البهاء في تاريخ حضرموت) للفقيه (عبدالرحمن بن علي بن حسان) إن التاريخ في حضرموت هو تاريخ محليّ بحت، ينحصر غالبًا في الصراع المتكرر بين القبائل والتنافس فيما بينها على السلطة... وظلت البلاد بعد ذلك نهبًا لأبناء أهلها يتصارعون فيما بينهم، وأصبح التاريخ عبارة عن سلسلة من تلك الثارات والصيال... وأصبح الخوض في مثل هذه الأمور نوعًا من الخطر قد يتعرض له كل من يتصدى لكتابة التاريخ، إذ لا توجد هناك دولة قوية تحمي المؤرخ إذا أراد أن يكتب شيئًا من ذلك؛ فإن ذِكرك لقبيلة بالخير قد يثير عليك القبيلة المعادية لها، وهكذا انكفأ الناس على أنفسهم وتركوا الحديث عن السياسة الذي هو صلب موضوع التاريخ لأصحابها. ولعل (الحبشي) يشير إلى سبب من أسباب عدم تدوين التاريخ الحضرمي إضافة إلى ما ذكره بقية من أشاروا إلى قلة المصادر.

أعجبتني كلمات الدكتور (عبدالله بن سعيد الجعيدي) - رئيس مركز حضرموت للدراسات التاريخية عند افتتاحيته لكتاب الدكتور عبدالله قنيوي (أخبار دوعن في صحيفة الرائد ١٩٦٠- ١٩٦٤م) عندما يتحدث عن أثر كتابة التاريخ بقوله: **"إن الكلمة في التاريخ لا تموت وهي الملاذ الآمن للمؤرخين في رحلتهم الدؤوبة للبحث عن الحقيقة"**. ويقول الدكتور (عبدالقادر علي باعيسى): **"كيف نستطيع أن نرى ما نستطيع من التاريخ ونحن نُظهر بعضه ونُخفي بعضه الآخر"**. وكلامه هذا في معرض ما يطلبه بعض القراء أو المشاهدين من إبعاد لبعض الموضوعات التي لا تروق لهم في (مجلة حضرموت الثقافية) أو برنامج (حوارات ثقافية) الذي يشرف عليه مركز حضرموت للدراسات التاريخية ويقدم في قناة حضرموت الفضائية. ثم يردف (د. باعيسى) قائلًا: "فإلى متى نظل نزحزح من دلالات التاريخ؟ وإذا حدث هذا من أجيال سابقة علينا لأسباب معينة، فكيف يحدث منا ونحن نتشدق بالبحث عن النموذج العلمي؟ والنتيجة معروفة: إذا اضطربت معايير التاريخ انْبَهَم الواقع".

يقول الأستاذ (محمد بن سالم بن علي جابر) تحت عنوان (أهمية دراسة التاريخ): "أهمية دراسة التاريخ لا يمكن إنكارها، فهو منذ العصور الأولى يعكس تطور المجتمعات البشرية واستجابتها للأحداث المحيطة. وإن كان هناك من يرى أن دراسة التاريخ مجرد تسلسل لأحداث ماضية، فإن الواقع يحمل دلالات أعمق بكثير. فالتاريخ ليس مجرد وقائع؛ إنه علم ينير لنا الحاضر ويمكننا من استيعاب المستقبل". وينقل (بن علي جابر) قول ابن خلدون في مقدمته عن أهمية التاريخ: **"إن التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الإخبار، ولكن في باطنه نظر وتحقيق وتعليل"**. وقول الكاتب اليوناني (شيشرون): **"فمن لا يقرأ التاريخ يبقى أبد الدهر طفلًا صغيرًا"**. وقول المؤرخ الأمريكي الشهير (ألفريد ويتني جريسولد): **"فالذين لا يعتبرون من أخطاء الماضي مكتوب عليهم تكرارها مرة أخرى"**. وقول الكاتب (روبرت هانيلين): **"الجيل الذي لا يتذكر التاريخ فلا يوجد له مستقبل ولا ماضي"**. ولكننا أمسينا في زمان قلّ فيه القرّاء ونحن أمّة (إقرأ)، يقول الأستاذ الدكتور (عبدالله حسين البار) أستاذ الأدب والنقد بجامعتي صنعاء وحضرموت في حوار له مع (أ. د. عبدالقادر علي باعيسى): **"إنني وصلت إلى قناعة هي أن تأثير المقروء في الصحف والكتب صار ضعيفًا. المرئي هو الذي يجذب إليه الآخرين ويتيح لهم فرصة التفاعل مع الذي يقوله هذا الكاتب أو ذاك، أما المكتوب الذي يحتاج إلى قراءة فهذا تراجع دوره كثيرًا في المجتمعات الحديثة. صارت الصورة هي الطاغية وصار المسموع هو الطاغي، وللأسف الشديد أنا أعدّ هذه ظاهرة خطيرة ستفرز ثقافة أدنى بكثير من الثقافة التي ينتجها الكتاب أو تنتجها المجلة أو ما أشبه هذا من الوسائل المكتوبة المقروءة. الكتاب هو أكثر خلودًا وأكثر ثباتًا وأكثر قدرة على التفاعل بين القارئ وما يقرؤه"**.

ثم يردف (بن علي جابر) قائلًا: "والتاريخ هو الذاكرة الجماعية للأمم، وبدونه قد تضيع الهوية والجذور. فكل حضارة بنيت على تراكمات من المعرفة والتجارب السالفة؛ وفهم التاريخ يتيح لنا اكتشاف تطور القيم والعادات والأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ومعرفتنا بتاريخنا تتيح لنا فهم من نحن وكيف وصلنا إلى ما نحن عليه".

ودراسة التاريخ ليست قاصرة على عِلْية القوم أو أصحاب الشأن أو الأكاديميين أو الباحثين أو السياسيين كما قد يبدو للبعض، ولكنها شأن كل ذي لبّ وبصيرة، يقول الكاتب (عوض سالم ربيع): "التاريخ ليس سجلًا للعظماء، بل للبسطاء ولأولئك الذين لا يملكون إلا جهدهم... والتاريخ ذو شعب ثلاث: اللّهث خلف المصادر... السماع والمشافهة... العيش وسط الحدث. وفي النهاية هو استقصاء أو صحافة استقصائية"، إنه يمنحك دروسًا مجّانية من عِبر الماضي تقودك نحو غدٍ مشرقٍ إن استفدت منها. يقول الكاتب الصحفي (محمد حسنين هيكل): **"التاريخ ليس ذيل الماضي، بقدر ما هو مقدمة المستقبل"**. ويقول الكاتب (مصطفى بن عبدالرحمن العطاس) وكأنه يشرح العبارة السابقة لهيكل: "إن ماضينا هو بالطبيعة حاضرنا عندما كان يتخلق، ثم إن حاضرنا هو بالفعل مستقبلنا عندما بدأ الآن يحبو". ويالها من كلمات تترجم بصدق أهمية قراءتنا للتاريخ والاعتبار من دروسه. لقد ورد "السير في الأرض" في القرآن الكريم ست مرات بصيغة الأمر، وسبع مرات بصيغة الاستفهام للاعتبار والتفكّر، بل إن كتاب الله مليء بالقصص للأمم السابقة وأحوالهم، **قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾**.

وإن نسيت فلا أنسى ما كان لمجلة (حضرموت الثقافية) من فضل كبير في العديد من معلومات الكتاب، حيث إنني تصفحت جميع أعدادها السبعة والثلاثين واحدًا تلو الآخر للبحث عن أي معلومة مفيدة تضيف لجهودنا ما أمكن، وقد كانت زادًا رائعًا فللقائمين عليها مني أجزل الشكر والامتنان. كما كان للدكتور عبدالله قنيوي، والاستاذ محمد سالم بن صويلح... مساهمة جيدة في تدقيق الكتاب ومراجعته وإبداء بعض الملاحظات على المحتوى، وكذلك الأستاذ إبراهيم عبدالسميع لمراجعته اللغوية والنحوية ليس لهذا الكتاب فقط، ولكن لمعظم مؤلفاتي.

قد لا يسلم هذا الجهد المتواضع من النقد، وهذا أمر طبيعي فلا يوجد شيء من جهود البشر كاملًا ومتقنًا بدرجة مثالية، ولكن كما يقول أحد الدعاة والمحققين المعاصرين: **"لا تنزعجوا من الخطأ. اعملوا.. اعملوا، فإن العمل يصحّح نفسه"**، وليس هناك كتاب يسلم من الخطأ، إلا كتاب الله -القرآن العظيم- ونحن بين حالين إما مجتهد مصيب فله أجران أو مجتهد مخطئ وله أجر، وأجزم أنني اجتهدت بقدر استطاعتي وبقدر ما

تحصل لي من مراجع ومن أشخاص أثق في معلوماتهم. ولعلي أكرر ما قاله الكاتب والمؤرخ (محمد بن هاشم) في كتابه (تاريخ الدولة الكثيرية) تعليقًا على ما ورد في كتابه من سرد لتاريخ حضرموت والدولة الكثيرية عندما قال: **"وبعد، فقد ألزمنا أنفسنا في هذا الكتاب أن نكتب ما عثرنا عليه في كتب التاريخ من أخبار القوم، مجردة من الملاحظات والانتقادات والأخذ والرد والتحليل والتركيب"**. وما هي إلا شذرات من تاريخ طويل وعميق أتمثل فيه قول المثل الحضرمي: **"خذ لك من كل سقاية مقدح"**، وإن تعذر علينا جمع أو تدوين كل ما يتعلق بتاريخ حضرموت فإنما نتبع القاعدة الفقهية: **"الميسور لا يسقط بالمعسور"**، والمثل القائل "ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه". ولعلني أشير إلى ما ذكره العلّامة الفقيه الشيخ (عبدالله بن أحمد الناخبي) عندما شرع في كتابة الفصل الخاص عن (العرب من أقدم العصور) في كتابه (شذور من مناجم الأحقاف) قائلًا: **"لعلنا ننتزع من مرورنا عِبرةً من الماضي وحافزًا للمستقبل، ولنتدارك ما جناه علينا الجهل المركّب والإهمال الفظيع لتراث الآباء والأجداد وابتعادنا كثيرًا عن المزايا الرائعة التي كانوا يتميزون بها على كثير من الأمم المعاصرة لهم"**، ومن لم يقرأ التاريخ ويتعلم من دروسه فسيكون عرضة للكثير من الأخطاء.

ربما لم أتطرق لمواضيع كثيرة عن تاريخ حضرموت إما لقلة المصادر أو لجهل بها أو من باب (قع جويّد)، و(سالمين كَلْ تمر).

المؤلف

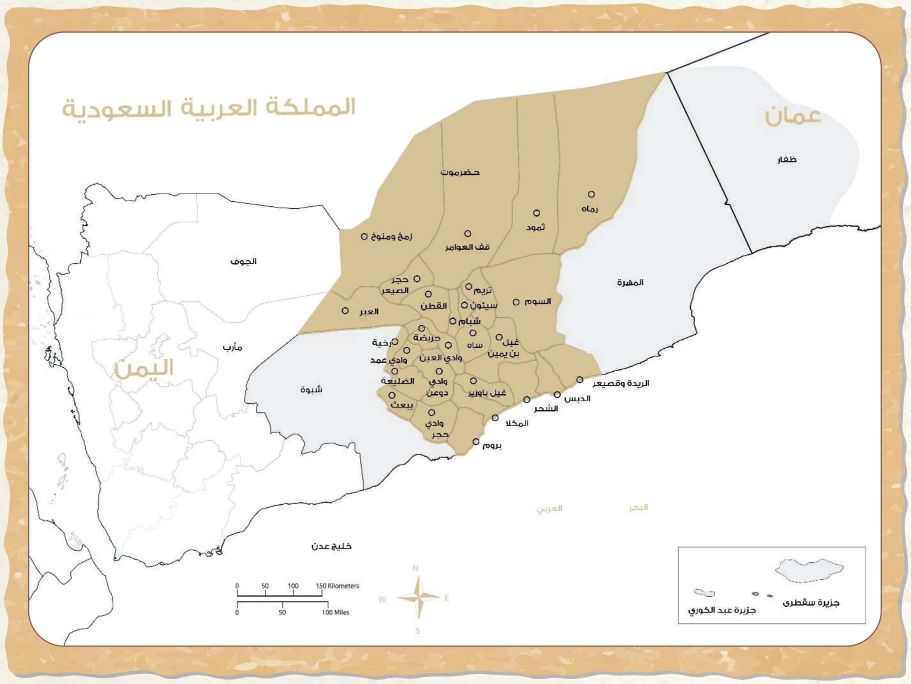

خريطة حضرموت

الباب الأول

حضرموت

تمهيد

رأيت أن الحديث عن وادي دوعن يقتضي التعريف بحضرموت مسبقًا، حيث يختلط على كثير من الناس والمغتربين على وجه الخصوص أن حضرموت هي ما كان يعرف قديمًا باليمن الجنوبي قبل الوحدة، لذا رأيت أن نذكر بعضًا مما كتبه المؤرخون كما في كتاب (الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها) للعلامة (علوي بن طاهر الحداد) وكتاب (صفحات من التاريخ الحضرمي) للمؤرخ (سعيد عوض باوزير)، وكتاب (تاريخ حضرموت) للمؤرخ (صالح الحامد العلوي)، وكتاب (جواهر تاريخ الأحقاف) للعلامة (محمد علي زاكن باحنان)، وكتاب (تاريخ حضرموت) للمؤرخ (أحمد بن عبدالله شنبل)، وكتاب (شذور من مناجم الأحقاف) للعلامة الشيخ (عبدالله بن أحمد الناخبي)، وكتاب (جهود فقهاء حضرموت في خدمة المذهب الشافعي) للمؤرخ والباحث (محمد بن أبي بكر باذيب)، وكتاب (إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت) للعلامة (عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف) وغيرهم.

حضرموت -كما سيأتي- تقع في الجهة الجنوبية الشرقية من بلاد اليمن، وفي الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، وهذه المنطقة -شبه الجزيرة العربية- كانت شبه معزولة عن أعين الرحّالة والمستكشفين قديمًا حتى قال عنها عالم الآثار والباحث البريطاني (ديفيد جورج هوقارت) في ١٩٠٤م: **"ما زالت أجزاء كثيرة من شبه الجزيرة العربية معزولة عن أعين الغربيين"**، ويقول عن اكتشاف الأراضي الحدودية الجنوبية **"إن حضرموت أكثر جزء مهم في تلك الأراضي"**. وذكر أنها بقيت لفترة طويلة مصدر يأس للباحثين في تاريخ وجغرافية شبه الجزيرة العربية.

يقول المستشرق الهولندي البروفيسور (كريستيان سنوك هرخرونيه) عند تقديمه لكتاب (حضرموت - إزاحة النقاب عن بعض غموضها) لمؤلفيه الرحّالة الهولندي (دانيال فان ميولين) وزميله الجغرافي الألماني (هيرمان فيسمان): **"إن الجهل بجانب كبير من هذه الأرض، يُعزىَ إلى فقر وجفوة تربتها، مما يُلقي على الرحّالة أعباء جسدية وذهنية ثقيلة، في الوقت الذى لا يوجد فيها ما يبشّر إلا بمزايا قليلة بالنسبة للاستثمار الغربي"**، ثم يضيف: **"على أن قسوة الطبيعة ليست وحدها هي التي تعوق الرحّالة في شبه الجزيرة العربية، بل لعله تخوّف سكانها من الأجانب، الذي اتخذ شكل تعصّب ديني. وقد دفع العديد من الباحثين الأوربيين أرواحهم ثمنًا لهذا التعصب"**.

لكن بعد فترة زمنية وبعد أن استقر الوضع السياسي في نجد والحجاز وكذلك في اليمن، بات الأمر أكثر سهولة وبدأ أهل تلك البلاد يألفون وجود الرحّالة الغربيين الذين كانوا يشمئزون منهم في الماضي، وأدرك ولاة الأمر في تلك البلاد أهمية الكشوف العلمية لبلادهم، وسمحوا لمزيد من الرحّالة زيارة بلادهم. وفي حضرموت لم يكن الأمر والأمن بتلك السهولة فبحسب

(هرخرونيه): **"صحيح أن الإسلام وجد طريقه منذ وقت مبكر إلى هذه البلاد، وأن العلم الإسلامي (يقصد تعاليم الإسلام) قد شكّل، ضمن أشياء أخرى، طبقة بين السكان من التابعين المتفانين، ولكن النسق السياسي لهذا الدين لم يفلح في أن يجعل من حضرموت أرضًا آمنة؛ فالحروب القبلية التي مزقت الناس جعلت البلاد مغلقة عمليًا أمام الزوّار الأجانب حتى ولو كانوا مسلمين. ومنعت السكان في نفس الوقت من استغلال أرضهم حسب جهدهم وهم في أمن وأمان"**. وأرى أن كلمة "النسق السياسي لهذا الدين" لا تليق ولا تستقيم فلربما فيها اتهام بقصور هذا الدين وعدم تمامه وقد قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾، وربما كان يقصد أن الحروب الطاحنة بين القبائل تسببت في خوف الأجانب من خوض غمار تجربة الولوج إلى أعماق تلك المناطق لعدم استتباب الأمن فيها.

يذكر الباحث البريطاني (ديفيد هوقارت) أنه على الرغم من وجود بريطانيا في جنوب اليمن وسيطرتها على الأوضاع، وأنها لا تضع عراقيل كثيرة أمام الزوار الأوربيين. وبالرغم من أن نفوذ سلطان المكلاّ والشِّحر يمتد أيضًا إلى جزء صغير من المنطقة الداخلية، إلا أن حضرموت الداخل تقع خارج نطاقه، وأغلب أمراء الإمارات المختصمين مع بعضهم بعضًا ليسوا ميالين إليه. ولذلك فإن كثيرًا من الرحّالة ما استطاعوا إلا أن يلقوا نظرة سريعة على جزء صغير من ذلك الوادي الغامض. والذين نجحوا منهم في الوصول إلى مدينة حضرمية، سرعان ما طُردوا منها ويكون من حسن طالعهم إذا استطاعوا أن ينجوا بحياتهم. وأي رحلة هادئة إلى الجزء المأهول من البلاد محفوفة بالصعاب. ويختم (هوقارت) كلامه عن حضرموت بقوله: **"إن الاهتمام بحضرموت يجب ألا يتراجع"، ويضيف: "أن لمجتمعها خصائص متميزة تشكل اهتمامًا كبيرًا للدارسين للحياة السامية"**.

حضرموت هي بلد نبي الله هود -عليه السلام- قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ**﴾، يقول ابن كثير في تفسيره: (كان قومه يسكنون الأحقاف وهي جبال رمل قريبًا من حضرموت متاخمة بلاد اليمن، وكانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد والطول المديد والأرزاق الدارّة والأموال والجنان والأنهار والزروع والثمار)، يقول الإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: **"الأحقاف وادٍ بحضرموت يدعى برهوت"** وقال ابن ماجه: الأحقاف: الشِّحر. وعند العلامة الفقيه (محمد علي زاكن باحنّان) في (جواهر تاريخ الأحقاف) أن الأحقاف جمع حِقف، من احْقَوفَ الشيء إذا اعْوَجّ، وذكر فيه من أقوال العلماء: **"أنه الرمل المعوج، وأنه الجبل، وأنه الوادي الشهير بحضرموت"**. وكلٌ محتمل لأن (عاد) سكنتها جميعًا، وأحسن الاحتمالات عند (باحنان) هو المعنى الثاني والثالث.

الأحقاف مساكن عاد الأولى (أطلس القرآن)

بحسب (د. شوقي أبو خليل) في كتابه (أطلس القرآن: أماكن -أقوام- أعلام) كانت مساكن عاد في أرض الأحقاف، شمال حضرموت، وفي شمال الأحقاف الربع الخالي، وفي شرقها عُمان، يعبدون الأوثان: ودًا، وسواعًا، ويغوث، ويعوق، ونسرًا... وقوم عاد الذين هلكوا هم عاد الأولى، أما عاد الثانية فهم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع، وقيل: هم ثمود.

وقال (شمس الدين المقدسي) في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم): **"وحضرموت هي قصبة الأحقاف، موضوعة في الرمال عامرة نائية عن الساحل آهلة. لهم في العلم والخير رغبة إلّا أنهم شراة شديد سمرتهم"**. وعند الأديب (صلاح البكري) فإن حضرموت "منذ العصور الواغلة في القدم تنقسم إلى إمارات صغرى أو أقيال جمع (قيل)، والقيل هو الأمير يسكن حصنًا أو قلعة ومن حوله بيوت الأنصار والحاشية والخدم وكان هؤلاء الأقيال أشبه بالأشراف في عهد الإقطاع في القرون الوسطى بأوروبا، وكانوا يتغازون بهجوم القوي على من دونه فيتغلب عليه ويستولي على أملاكه، فإذا امتدت سلطته وطار صيته؛ كوّن مملكة وسمّى نفسه ملكًا، وعلى هذه الكيفية تكونت الممالك ونشأت الدول في جزيرة العرب".

بحسب ما يذكره (الحامد) فإن حضرموت لا تزال مجهولة عند كثير من الناس -ليس من غير أهلها فحسب- ولكن حتى من أهلها، حيث يقول: **"وإذا كانت حضرموت عند البعض اليوم مجهولة الحال غير معروفة كما ينبغي أن تعرف، فشأن تاريخ ماضيها عندهم أكثر جهالة وأغمض شأنًا. بل إن تاريخها غير معروف بالتفصيل والتسلسل المتّصل حتى عند خواص أبنائها"**، ويضيف: **"أما تاريخ حضرموت على العموم، أي من جميع النواحي، وأهمها الناحية السياسية التي اعتاد المؤرخون بناء بحوثهم ودراساتهم عليها، فذلك غير موجود مجموعًا في مؤلّف خاص"**. ويذكر أن المعروف من التاريخ القديم بجنوب جزيرة العرب أن حضرموت كانت جزءًا من مملكة سبأ. ولم تستقل بنفسها ولم يكن لها كيان خاص إلا في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد.

ويذكر (عبدالله محمد الحبشي) في مقدمة كتاب (تاريخ حضرموت) للمؤرخ (أحمد بن عبدالله شنبل): **"أن المؤرخ شنبل عندما أراد أن يجمع تاريخه ابتدأه بأوائل القرن السادس لعدم وجود ما يخص حضرموت في السنوات السابقة قبل ذلك القرن، وهي في الغالب فترة غامضة في تاريخ حضرموت وكأنها اندرجت أحداثها بتاريخ اليمن الأم"**، ويضيف: **"وإذا كانت هناك بعض الصفحات الضائعة من شنبل فإنني أميل إلى إعزاز رجوع ذلك إلى قلة المعلومات حول حضرموت حينها"**. وقد شدّني ما نقله العلامة الشيخ (عبدالله بن أحمد الناخبي) عن المؤرخ الفرنسي (غوستاف لوبون) قوله: **"إن اليمن كانت مقرًّا لأقوى دول الأرض، وأن حكم ملوكها دام ثلاثة آلاف سنة، وأنها غزت بلاد الهند والصين من الشرق، وبلغت بغزواتها مراكش من الغرب"**.

يرى المؤرخ الروسي (د. سرجيس فرانتسوزوف) أن فترة القرون الوسيطة الباكرة وهي التي تبتدئ من الاحتلال الحميري وحتى ظهور الدويلات الإسلامية المستقلة الأولى في المنطقة، في القرن الثاني عشر الميلادي؛ تعتبر من أهم الفترات الانتقالية في جميع مراحل التاريخ الحضرمي. فلقد تم أثناءها تشكيل المجتمع الحضرمي الخاص بالقرون الوسيطة وجرى الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام الذي حوّل مجالات الدين، والأيديولوجيا، والثقافة، والعلاقات الحقوقية والسياسية تحويلًا جذريًا. ويرى (فرانتسوزوف) أن المجتمع الحضرمي في تلك الفترة يتكون من مجموعتين رئيستين هما: **الجماعات الزراعية المتحدة في وحدات مساحية زراعية**؛ وهم ورثة وحملة التقاليد الحضارية القديمة لجنوب الجزيرة العربية، **والقبائل البدوية المترحلة وشبه المترحلة الأصلية**. وتميزت كلتا المجموعتين بانتماءاتهما الإثنية المختلفة، وتنظيماتهما السياسية الخاصة. ويذكر أيضًا أنه في فترة الفتح الحميري برزت بشكل واضح الخصوصية المميزة للمجتمع الحضرمي، والتي تطورت كثيرًا في فترة العصور الوسيطة المبكرة: كالاستقلالية الذاتية للجماعات الزراعية من النواحي

الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسياسية. كما يعزو غياب المركزية السياسية والعسكرية لدى السكان الحضارمة الأصليين في العصور الوسيطة المبكرة إلى تشتت الأعيان المحليين الموزعين إلى أقيال ينتمون إلى بطون مختلفة كل منها مستقل عن الآخر بالإضافة إلى الانتماءات المختلفة لهؤلاء الأقيال. ولا تعود اللامركزية في الحياة السياسية للمنطقة قبل قرون من ظهور الإسلام إلى صراعات وجهاء العائلات النبيلة فقط، وإنما السبب في ذلك يكمن في طبيعة العلاقات بين الجماعات المحلية التي اعتادت نوعًا من الاستقلالية الكبيرة، وكذا إلى الخصائص الجغرافية لحضرموت المتكونة من عدة وديان جانبية منعزلة، يستطيع سكانها العيش في حياة مستقلة ذاتيًّا تقريبًا.

لقد تصفّحت أنا شخصيًّا (المؤلّف) أكثر من ١٠,٠٠٠ صفحة من عشرات الكتب والمراجع لعلّي أحظى بمعلومات كثيرة عن حضرموت وأهلها وشعبها وتاريخها وملوكها، وكان من نتاج ذلك هذا الجهد المتواضع. ولعل السبب في اندراس تاريخ حضرموت من عدم الحفظ بالتقيد والكتابة، ووضع التواريخ والاعتناء بها بحسب (د. محمد يسلم عبدالنور) من كلية الآداب - جامعة حضرموت، نقلًا من كتاب (البرقة المشيقة في ذكر لباس الخرقة الأنيقة) للشيخ علي بن أبي بكر العلوي: **"أنهم كانوا قديمًا يتناقلون الأخبار بالمذكرات ولم يقيدوها في الكتب فأهملت بذلك أخبار وآثار ومحاسن حميدة"**. إلا أن هذه العلّة لم يرتضيها المؤرخ (الحداد): **إذ جعل السبب في ضياع تاريخ بلاد حضرموت هو البداوة لا عدم التدوين، فالكل قد ضاع والسبب في ضياعه الجهل والبداوة، فإذا مات العالم ترك ما عنده من كتب مظنونة لمن لا يعرفها ولا ينشرها فتأكلها الأرَضَة وتذهب ضياعًا، والسبب هو الجهل والبداوة والغفلة الشديدة**، وهذا مصداقًا لما قاله (الجندي): **"إن حضرموت مخلاف يغلب على أهله الجهل والبداوة الشديدة"**.

يذكر الرحّالة الألماني (هانس هيلفريتز) في كتابه (اليمن من الباب الخلفي) عند تحليله لشخصية البدوي: **"فالبدوي يعتبر قبيلته الخاصة، الجماعة الوحيدة التي يحسّ نحوها بالالتزامات الأدبية، وكلّ من لا ينتمي إلى هذا المجتمع الضيق بوشائج القربى يعتبر عدوًا بصورة رئيسة، لا يجوز التعامل معه إلا على أساس قانون تنازع البقاء وبقاء الأقوى. وهكذا فإن غزو القبائل الأخرى وسلبها ما تملكه، ليس بالأمر المباح فحسب، بل هو قاعدة أدبية معترف بها بصورة عامة، في معركة الوجود والبقاء. ومن حق المهاجمين أن يدافعوا عن أنفسهم، وإذا ثبت أنهم أضعف من مهاجميهم مراسًا، كان تغييهم إلى مكانة أوضع في مقياس الوجود"**.

وعن بساطة تفكيرهم يقول (هيلفريتز): "**أنهم يفترضون أيضًا أن كل أوروبي طبيب بطبيعته، وأن رفضه مداواة أحد المرضى وإيلاءه العناية الطبية، ناجم عن سوء النية وهكذا يضطر الأوروبي عادة، إلى التزوّد بعدد من العلاجات في رحلاته. وهي من النوع الذي لا يمكن أن يحدث ضررًا. وكثيرًا ما تنجح هذه العلاجات، بالنظر إلى إيمان المريض إيمانًا مطلقًا بصلاحها**". ولكن هذا البدوي في نفس الوقت يعيش حياة صعبة وشاقة وينقصه التعليم والمال ويرتحل على الدوام في ظروف مناخية قاسية، يصفها (هيلفريتز) نفسه في كتابه (الجنوب العربي المنسي): "**يسير البدوي حافيًا يومًا بعد يوم، حتى آخر عمره على رمال الصحراء شديدة الحرارة، وعلى الممرات الجبلية الغنية بشظايا الأحجار، وبفضل تحمله وصلابته المتناهيين يعتني البدوي بمفرده بمواصلة حركة سير البضائع والرحلات ما بين منطقة الشاطئ والمرتفعات، برغم قساوته وانعدام الأمن في المنطقة**".

وعند تحليل شخصية البدوي يروي (إنجرامز) أن البدوي يحرص على ثلاثة أشياء (السلاح والجمل والزوجة) وهذا هو كل متاع البدوي، وأنهم لتحسين معيشتهم إما أن يُغيروا على أموال الآخرين فيضيفوا إلى ما لديهم، أو أن يهاجروا كي يعيشوا حياة أفضل. والنهب أو السلب مسألة قابلة للنقاش. إنها ليست جريمة في حق المجتمع وفي نفس الوقت هي وسيلة معترف بها للكسب وتمارس وفقًا لبعض القواعد الخاصة بها. وفي ظني -المؤلف- أن هذه السلوكات ليست خاصة ببدو حضرموت، ولكنها كانت شائعة في جزيرة العرب عمومًا وحتى عند قدماء الغربيين والشرقيين.

تنبيه:

إن ما يتعلق بكتابات الغربيين عن غيرهم من الشعوب وتحليلهم لشخصياتها وسلوكاتها فقد أوجز (د. أحمد عبدالرحمن السقاف) خريج (جامعة هاردفرد) رأيه فيها عند تقديمه ومراجعته لكتاب (هارتمان) بعنوان (الحبشة - والمناطق الساحلية الشرقية الأخرى من أفريقيا) بقوله: "**فقد حقق الغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي إنجازات عدة في ميادين معرفية شتّى، ولكن على وفق رؤية غربية خاصة وذاتية قد تختفي فيها الموضوعية وتغيب النظرة الشمولية خصوصًا عندما يتعلق الأمر بالشعوب الأخرى غير الأوروبية**". وتجد هذا كثيرًا في كتاباتهم وقد تعقّبها (أحمد بن عمر بن أحمد الكاف) في ورقته العلمية بعنوان (مزاعم إخفاء التراث الحضرمي) وأوضح أن كثيرًا من تحليلات وآراء الغربيين وغيرهم من العرب الذين تأثروا بكتاباتهم؛ غالبًا ما يكون منشؤها والقاسم المشترك بينها **العنصرية وخطاب الكراهية، وأنها بقايا المخلّفات الاستعمارية التي ينبغي تحرير الأنثروبولوجيا منها.**

لقد كانت عبارات الروسي (سرجيس فرانتسوزوف) مليئة بسوء الظن على أقل تقدير إن لم نقل بأنها حاقدة ومضللة ولا كان يجدر به أن يدرجها في دراسته لنيل درجة الدكتوراه والتي ظهرت في كتابه لاحقًا (تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبل الإسلام وبعده)، وقد تحامل كثيرًا على من دخلوا في الإسلام من أهل حضرموت طواعية ورغبة في هذا الدين السمح ووصفهم **بالطامعين في الملك والرئاسة والمال والثروة.** كما يصف الإسلام **بعدم قدرته على توحيد سكان حضرموت كأمة واحدة**، وقس على ذلك بقية المستشرقين والرحّالة والمؤرّخين.

ومن تلك العبارات التي في كتبهم يصفون بها المشايخ والسادة والقبائل:

- "وامتد نفوذ السادة حتى وقت قريب ليغطي كل أرجاء حضرموت، كما كان حال الكنيسة خلال القرون الوسطى في أوروبا" - (إنجرامز).
- "غزو السادة لكل نواحي الثقافة الحضرمية"، و"النظام التراتبي الذي فرضه العلويون على القبائل لتعزيز مكاسبهم الاقتصادية والاجتماعية" - (روبرت سارجنت).
- "إن أصل السادة كما هو جلي؛ يثير الشكوك" - (ميخائيل روديونوف).
- "السادة صوّروا أنفسهم بصورة التنسك والزهد، وأخفوا تسويقهم لحوط الأولياء على زبائنهم الاقتصاديين والسياسيين، تحت طبقات سميكة من السِّير والتراجم المموّهة" - (الإكسندر كيش).
- "وكان الدخول في الإسلام بالنسبة لكثير منهم يعني الدخول في حلف عسكري وسياسي شخصي مع الرسول، الذي يشترط عليهم فقط شرط قبول الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى" (يقصد قبيلتي كندة وحضرموت) - (سرجيس فرانتسوزوف).
- "وليس هناك من شك في أن قدوم الأشعث بن قيس الكندي إلى الرسول، كانت الأهداف منه سياسية أكثر مما هي دينية" - (سرجيس فرانتسوزوف).
- "وكان النزاع حول ملكيات مساحات الأراضي مع زعماء كندة هو السبب الرئيس الذي جعل وائل بن حجر يجدُّ الطلب للبحث عن سند الرسول -ﷺ- له؛ خاصة أن كندة كانت تحاول السيطرة على أحد الوديان التابعة لوائل في حضرموت" - (سرجيس فرانتسوزوف).
- "وقد رأت كندة المعتادة أخذ العطايا من القبائل الأخرى، أن في تسليمها الصدقة نوعًا من الإهانة والهبوط بمكانتها" - (سرجيس فرانتسوزوف).

- "وقد رفضت كندة في أثناء حوارها مع (زياد بن لبيد) الاعتراف بأبي بكر زعيمًا للأمة الإسلامية، محتجّة بعدم تعيين الرسول للخليفة من بعده؛ وعبّرت عن عدم رضاها بتولي الخلافة لرجل من غير بيت الرسول" - (سرجيس فرانتسوزوف).
- "ولم تستطع العقيدة الإسلامية السمحاء أن تكون الإطار الذي يُوحّد جميع سكان المنطقة بمختلف انتماءاتهم الإثنو - قبلية" - (سرجيس فرانتسوزوف).
- "فبحسب القواعد القبلية؛ وما تعاملت به كندة من ضوابط عرفية في السابق؛ فإنها بوفاة الرسول عدّت كافة الالتزامات والاتفاقات معه فاقدة لمصداقيتها؛ وهي بحلّ عما ألزمت نفسها به من واجبات - (سرجيس فرانتسوزوف).
- "توجد طبقة السادة الأشراف، نوع من تسلسل هرمي أرستقراطي، ترجع أصولها إلى ابنة النبي وأسباطه. وتتمتع هذه الطبقة في حضرموت بنفوذ هائل وتهيمن على الناس بالمعتقد الديني الذي تدين بوجودها إليه. تتفاخر هذه الطبقة أن نسبها أنقى من عائلة أي سيد آخر، حتى بالنسبة لأسياد مكة والمدينة... حتى أن سلاطين العرب يظهرون لهم احترامًا واضحًا، ويقبّلون أياديهم عندما يلجون إحدى الحجرات. ويتمتع هؤلاء بنطاق من السلطة خاص بهم، حيث تحال معظم نقاط الخلاف على الملكيات وحقوق المياه وما إلى ذلك إليهم؛ لكي يصدروا قراراتهم فيها" - مايبل بينت.

يقول المفكر الإسلامي الجزائري (مالك بن نبي) عن أثر كتابات المستشرقين: **"إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت في الواقع درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها"**. ويذكر الباحث (سعيد محمد دحي) في مقدمة ترجمته لكتاب (نثر وشعر من حضرموت) لمؤلفه المؤرخ (روبرت سارجنت) وذلك عندما التقى بالأديب (محمد عبدالقادر بامطرف) كيف أن بامطرف أوضح له **ما يقع فيه الدارس الأجنبي من مزالق غير مقصودة لدارس أجنبي، واستنتاجات لا يحالفها الصواب أحيانًا لاختلاف المنابع الثقافية والحضارية والأدبية والشعبية بين رؤيته، ورؤية الواقع الحضرمي**: ويقول (بامطرف) أيضًا في كتاب (المستشرقون وآثار اليمن): **"أن الاستشراق المؤسسي الحديث واكب الهجمة الاستعمارية وارتبط بعض أقطابه بالأجهزة الاستعمارية في بلادهم، ثم إنه - ككل مجال آخر من مجالات الحياة - ليس بمأمن من اختراق الاستخبارات له، خاصة وأن كثيرًا من الأموال التي تقدمها الدولة لمجال الدراسات الأجنبية ليست بعيدة الصلة بخدمة المصالح الوطنية للبلاد التي تقوم بالتمويل"**.

لذا علينا عندما نقرأ لهم أن نستحضر خلفياتهم الثقافية والعلمية ونياتهم الحقيقية عند الكتابة عن أوطاننا أو زيارتها ورفع تقاريرهم عنها. فبعض استنتاجاتهم يجانبها الصواب

إن أحسنّا بهم الظن وإلا فقد تكون عن قصد لتشويه صورة الأشخاص أو الشعوب أو المعتقدات أو الأوطان. يذكر الأستاذ الدكتور (عبدالله حسين البار) عن نظرة الرحّالة والمستشرقين إلى بدو حضرموت وإغفالهم لما فيها -حضرموت- من حضارة وانفتاح كما في سيؤون وتريم وشبام فيقول: **"للأسف الشديد هؤلاء الرحّالة والمستشرقون الذين يأتون إلى حضرموت يهتمون كثيرًا بهذه الحالات البدوية عن تمثل هذه الحالات المدنية، لأنهم يرون في الحال البدوي الطزاجة البشرية في أول عهدها بالوجود وهذا أضرّ بنا نحن"**، ويذكر (د. البار) مثالًا عن رحلة (فريا ستارك) وما ذكرته عن رحلتها لحضرموت ويذكر أنه: **"وعندما تنظر في كتابها تشعر أنها مركّزة تركيزًا كبيرًا على هذه الصور التي تمثل هذه البداوة والتدني الحضاري في حين أن هناك نماذج أعلى وأرقى، كان ينبغي أن تضيفها حتى تُبين للعالم أن في حضرموت هذا النمو الحضاري، ولكن للأسف الشديد كأنما يريد المستعمر أن يقول إن هذه البلد التي جئناها نحن صنعنا فيها ما صنعنا، وغيّرنا فيها ما غيّرنا، وهذه نظرة ضارّة لأنها تقدّم حالة من الدونيّة عند الحضارم وهم ليسوا كذلك".**

يذكر الدكتور (زهير برك الهويمل) تحت عنوان (أسلوب البناء فالهدم في رسم معالم الصورة الحضرمية أرضًا وإنسانًا) وذلك في سياق الوصف التصويري للمجتمع الحضرمي عند الرحّالة (مايبل بينت) في كتابها مع زوجها بعنوان (في جنوبي جزيرة العرب)، حيث يذكر (د. الهويمل) أن كتابات بعض المؤرخين والرحّالة لا تخلو من (بناءٍ فهدْمٍ)، فتبدو لك بعض عباراتهم في وصف أبناء حضرموت أنها مدح وثناء، ولكن سرعان ما يلحقونها بعبارات ذم وقدح، ويذكر أن قراءات تنحو هذا المنحى من شأنها أن تكشف ما يحاول خطاب السياق السردي الأجنبي أن يلصقه بالصورة الاجتماعية الحضرمية - في عمومها وخصوصها -من زيف وتشويه وتعالٍ- وهو ليس منزهًا من ذلك. كما في قول الرحّالة (مايبل بينت) عند وصفها أفراد من قبيلة الحلكي بقولها: "وجوههم صافية وهادئة، وكان يمكن ظنهم نساء؛ بسبب وداعتهم وجمالهم"، وهذا في حد ذاته يبدو بناءًا، ولكنها تردف ذلك بقولها: "كان لونهم الأسمر طبيعيًا وازداد سمرة بسبب الاتساخ واللّون النيلي، وقد جدل شعرهم الأشعث الطويل إلى الأعلى بعقدة، وتم تثبيته بحبل مضفور طويل يشبه رباط الحذاء "، يعقّب (د. الهويمل) على كلامها بقوله: "يتحوّل السياق هنا من سموّ الوضاءة والنور والصفاء والوداعة والجمال لوجوه الرجال أنفسهم، إلى ظلمات الوصف وقتامته، أي من أسلوب البناء إلى أسلوب الهدم التصويري... إن هذه اللّغة تكشف عن مدى القتامة، والسواد الذي يشكّل الفكر المكتنز عند الكاتبة، والمغذّي لسرد الحياة الاجتماعية الحضرمية في شتّى مناحيها".

كما لم يسلم السادة والمشايخ والسلاطين والبدو أيضًا من أقلام أدباء ومفكري حضرموت نفسها، فتارة يوصف السلاطين (القعيطي والكثيري) بأنهم **"نظام هندي مستزرع في حضرموت"**، وتوصف السلطنة القعيطية بأنها **"احتلال أجنبي"**، وأحيانًا يوصف العلويون بأن **"لديهم اعتزاز مفرط بالذات"**، كما أن السادة **"قبوريون وضالون وغلاة مثل الهندوس وعبدة الأصنام"**، وغير ذلك من الأوصاف أيضًا عن المشايخ باستغلال النفوذ الروحي، وعن البدو ووصفهم بالجهل والقسوة والظلم والنهب والسرقة. بل حتى الرحّالة وعالم الآثار البريطاني (جيمس ثيودور بينت) عند زيارته لحضرموت، وصف السلطان القعيطي عندما رآه بقوله: "اسميًا، يحكم المكلّا سلطان من عائلة القعيطي، وكان ارتباطهم بالهند جعلهم أشبه بالإنجليز بشكل كبير في تعاطفهم، حيث المظهر العام لجلالة السلطان عند ارتداء سترته المخملية، والخنجر المرصّع بالجواهر، أشبه بالهنود أكثر من أنه عربي".

ولست هنا بصدد الدفاع عن أي طرف أو جانب فالجميع بشر يخطئ ويصيب، ولكننا بحاجة إلى الاعتدال في التوصيف فكما أن للسادة أخطاء ومبالغات في تقديس الأشخاص الأحياء منهم والأموات، إضافة إلى ثقافة المبالغة في سرد الكرامات التي أضرّت بهم، وغلوّهم في أفضلية العلويين الحضارم من ذرية الحسن والحسين عن غيرهم من ذريتهما، إلا أنه كان لهم دور فاعل في نشر العلم والدروس العلمية ومحاربة الفكر الإباضي وبناء المساجد، ولا يخلو اجتهاد البشر من قصور ونقص.

كما أن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها حضرموت ربما كانت سببًا في نشوء تلك التحولات. وأن الاستمرار في ترداد هذه التهم والأوصاف بين الفينة والأخرى ربما يهدد السلم الاجتماعي. وقد ذكر بعض أهل العلم أن كثيرًا من الروايات عن الكرامات **"إنما هي من زيادات النقلَة والكتَبَة والتلاميذ والمريدين لإبراز مقام الشيوخ أمام الأشباه والأنداد"**، وليست من روايات الولي أو العالم أو الشيخ. لذا وكما يقول الكاتب (كرامة بامؤمن) في كتابه (الفكر والمجتمع في حضرموت): **"إننا ندعو إلى التآخي والتماسك الاجتماعي. لا استعداء ولا استعلاء ولا افتراء. وكلنا عباد الله إخوانا"**. على الرغم من عباراته اللّاذعة في حق بعض السادة والمنتسبين لأهل البيت كاتهامهم بأنهم **طبقيون وعنصريون ومتعالون وغيرها من الألفاظ القاسية**، التي تفرّق ولا تجمع حتى وإن كان في كلامه بعض الصواب لما استدل به من آيات وأحاديث، ولكن الله تعالى يقول: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا**﴾ الإسراء:٥٣، ويقول أيضًا: ﴿**لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا**﴾ النساء:١٤٨. وقوله تعالى: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ البقرة:٨٣،

وما ذكرته لا ينقص ولا يقلل من مكانة الأديب الفاضل (كرامة بامؤمن) ولست في مكانة تسمح لي بتقويم أعماله أو نقدها، فقد حوى كتابه (الفكر والمجتمع في حضرموت)، معلومات ثرية ومفيدة عن حضرموت وبأسلوب رائع ومشوق، ولكن قلمه كان قاسيًا بعض الشيء على بعض الفئات الحضرمية، ولعل له عذرًا.

وإن كان في مواطن أخرى من كتابه السالف الذكر قد أشاد بدور السادة العلويين في نشر الإسلام في دول شرق آسيا والهند وغيرها بقوله: "**وقد أسلم على يد الدعاة الحضرميين خاصة العلويين منهم لما يتمتعون به من علم وثقافة (صوفية) الألوف من وثني تلك الشعوب وحكامها**". وهذا من باب الإنصاف. وقد أحسن (بامؤمن) عندما لخّص كلامه بعد التفصيل والإسهاب بقوله: "**إننا اليوم وقد توحّد اليمن في أمس الحاجة إلى تعميق فكرة (المساواة) بين جميع اليمنيين بصرف النظر عن أصولهم القبلية (عدنانية - قحطانية) أو نزعاتهم المذهبية (علوية – سنية) فلا تحسّس مما فعله أسلافنا فهم نبت ظروفهم ونحن نبت ظروفنا، فلا ندع مجالًا لظروفهم أن تتحكم في ظروفنا، ويجب أن تختفي من حياتنا العصبية المذهبية والعصبية القبلية لتسود بيننا العدالة والمساواة؛ لأنهما من أرقى مبادئنا الإسلامية**".

وعلى الرغم من ذلك ومن باب الإنصاف والعدل ينبغي الإشادة بجهود الرحّالة والمستشرقين والمؤرخين (فرانتسوزوف، وروديونوف، وإنجرامز، وفريا ستارك، وفريدا، وسارجنت، وكيش، وميولين، وهيلفريتز، وثيسيجر وغيرهم)، فقد سطّروا عن تاريخ حضرموت وجغرافيتها الكثير رغم الظروف الصعبة التي واجهوها في كثير من الأحيان سواء ما يتعلق بالأمن أو الظروف المناخية والجغرافية وعدم توفر مواصلات حديثة أو تقنيات عالية وأجهزة دقيقة عوضًا عن عدم تقبل المجتمع والشعب لهم في كثير من الأحيان كونهم من خلفيات جنسية ودينية مختلفة. وقد انبهرت بالتفصيل الذي ذكره (ميخائيل روديونوف) والذي كان من ضمن البعثة السوفيتية اليمنية المشتركة في عام ١٩٩٣م، في كتابه تحت عنوان (أثنوغرافيا حضرموت الغربية - العام والمحلي في الثقافة السلالية) وتعني دراسة منهجية لثقافة أو مجتمع ما، فقد أورد المؤلف تفاصيل عجيبة ودقيقة لمعظم عادات أهل حضرموت الداخل والتي من ضمنها: نظام الإعاشة والحالة الاقتصادية، والأعمال التقليدية (كالزراعة والدباغة والصناعات الفخارية)، والقنص، وطقوس الزواج، والمهور، والأزياء، والختان، ومراسم دفن الموتى، والقوانين المنظمة للملكية والإدارة، ونماذج من الفلكلور الشعبي وغير ذلك الكثير. بل إنه دعم كتابه بمجموعة من الرسومات عن الأدوات المستخدمة في الفلاحة والزراعة والحياكة والطبخ، مع بعض الصور الفوتوغرافية لبعض الأشخاص والأماكن.

كما يُعدُّ المستكشف والرحّالة البريطاني (ويلفريد ثيسيجر) أحد أبرز المستشرقين الذين زاروا اليمن وحضرموت وكتبوا عنها بتفصيل كبير. وكان يعرف عند القبائل البدوية في الصحراء العربية باسم "مبارك بن لندن" وقد اثنى كثيرًا على بعض عادات شعبها ورجالاتها، من ذلك قوله في كتابه (رمال العرب Arabian Sands) الذي كتبه عام ١٩٥٩م، والذي قدَّم فيه وصفًا دقيقًا لرحلاته عبر الصحاري اليمنية، مركّزًا على حياة البدو وتاريخ المنطقة العريق حيث قال: "وجدت السعادة الحقيقية وأنا أعيش بين البدو"، وقد أمضى (ثيسيجر) يومين في مدينة شبام، التي وصفها بأنها **"أكثر المدن إثارةً للاهتمام"** وقال عنها: "عدد سكانها ٧٠٠٠ نسمة تقريبًا، يحيط بها جدار عالٍ يبدو قزمًا إلى جانب البيوت التي ترتفع داخله سبع وثماني طبقات. عندما كنتُ أقف في الأزقة تحت الجدران الشاهقة لهذه البيوت، شعرتُ كأنني في قاع بئر".

أشاد (ثيسيجر) بحياة البدو، واصفًا إياهم بـ"أقوياء، صبورين، وأصحاب شرف... هم لا يطلبون الرفاهية، ويعتمدون على أنفسهم في بيئة قاسية... البدو آخر الرجال الأحرار، وحياتهم نقيّة بعيدة عن تعقيدات المدنية".

ويذكر الدكتور (مسعود عمشوش) عن الرحّالة والمستكشف (جون فيلبي) الشهير بـ (عبدالله فيلبي) أن فيلبي كان لديه قدرة فريدة على التأثير في مجريات الأحداث السياسية والاستخباراتية في اليمن وحضرموت، فهو لم يكن مجرد مستكشف جغرافي، بل كان شخصية محورية في رسم سياسات المنطقة، ورغم انتقاد البعض له بسبب التدخلات السياسية، إلا أن (د. عمشوش) يعترف بأهمية الجانب العلمي لكتبه، خصوصًا في مجالي الجغرافيا والتاريخ، قائلًا: "إن دراسات فيلبي حول الجزيرة العربية وحضرموت تعتبر من بين الأهم على الإطلاق في هذا المجال". ويشيد (د. عمشوش) بإسهاماته العلمية التي لا يمكن تجاهلها. ويؤكد على أن ما أضافه من معرفة حول اليمن وحضرموت يعدّ ركيزة أساسية لفهم تاريخ المنطقة في تلك الفترة.

يوضح ذلك أيضًا (د. زهير برك الهويمل) في معرض قراءته لرحلة الزوجين (ثيودور، ومابيل بينت) من المكلّا إلى شبام عام ١٨٩٣م حيث يقول: "إن من الإنصاف القول إن مثل ما للرحّالة القادمين إلى حضرموت من دور في تشويه الصورة الاجتماعية الحضرمية في كتاباتهم -وإن كان لغرض تسويقي لكتبهم- برسم لوحات عبثية مشوهة أحيانًا تستقطب كثيرًا من القرّاء، فإن لهم دورًا مهمًا في كشف بعض المطمورات من الحقائق في تاريخنا الحضرمي الداخلي، والذي يخص البُنى الطبقية الحاكمة من سلاطين وشيوخ قبائل، ومرجعيات دين، وغيرها من أصحاب القرار، وتعرية بعض الحقائق التي لا يمكن لكاتب محلي أن يكتشفها". ثم يردف قائلًا: "وهي تفاصيل لحقائق لا ينبغي علينا دحرها وبطلانها،

لمجرد أن الحاكي لها غير مسلم، بل علينا أن نتقبلها كباحثين كوقائع مسرودة، كتبتها أيادٍ كانت حينئذ أقرب إلى عمق تلك المكونات الاجتماعية، من بعض أفراد أسرها، فنحلّلها وندرسها بكل حيادية وموضوعية، بعيدًا عن العاطفة النابعة عن علائق الدين والعرق والمكان، فنقبل بصحة ما أيّدته القرائن الملموسة والمنطقية والعقلانية، هكذا نستطيع دراسة تاريخ حضرموت دراسة علمية أبستمولوجية" أي دراسة فلسفية لطبيعة المعرفة وحدودها ومصادرها.

المؤلف

حضرموت اسم عربي عريق، تنوعت وأختلفت الروايات في أصل تسميته، واشتهر وازدهر بالحضارة، والتجارة خاصة البخور، كما أنه احتفظ باسمه وهويته عبر العصور، وسكنته قبائل عريقة، وتميز بواديه وثقافته المتجذّرة.

أسباب تسمية حضرموت

تذكر كتب التاريخ أن أهل اللّغة والنحويين أجمعوا على أن اسمها مركّب تركيبًا مزجيًا من كلمتين هما: (حضر) و(موت)، ثم اختلفوا فمنهم من قال هذا الاسم في الأصل لرجل وقال آخرون: هو اسم قبيلة، والذين قالوا إنه في الأصل اسم رجل اختلفوا في نسَبِه. وعند الباحث والمؤرخ (محمد بن أبي بكر باذيب) أنها اسم علَم على جدٍ جاهلي (على ما عليه الأكثرون)، سُمّيت باسمه منطقة واسعة في جنوب جزيرة العرب. وضبْطها كما عند العلامةاللّغوي المؤرّخ (عبدالله الطيب بامخرمة) في كتابه (النسبة إلى المواضع والبلدان) وعند غيره من اللّغويين أيضًا تُضبط "حَضْرَمَوْت" بفتح الحاء فسكون الضاد المعجمة فراء فميم مفتوحتين فواو ساكنة فمثنّاة فوقيّة، ويضيف العلّامة (مرتضى الزبيدي)، كما في (تاج العروس) قوله: "وقد تُضمُّ الميم مثال: عنكبُوت".

قال الخليل بن أحمد: "حَضْرَمَوْت اسمان جُعِلا اسمًا واحدًا، ثم سمّيت به تلك البلدة"، والنسبة إلى حضرموت: حَضْرَمِي، ويجمع الحضرمي على (حَضَارِمَة) كما قال بن منظور. وفي الحقيقة فقد توسّع الباحث (باذيب) في ذكر أسباب تسميتها وذكر في ذلك عدة أقوال، ولمن أراد التوسع العودة لكتابه (جهود فقهاء حضرموت في خدمة المذهب الشافعي).

رجّح الباحثون أن حضرموت اسم موغل في القدم. وقد جاء ذكرها في مختلف المصادر التاريخية سواء أكان قبل الإسلام أو بعده، حيث وردت لفظة حضرموت (حضرميت) في أسفار العهد القديم كأحد أبناء قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. وأنه أقدم من سكن حضرموت بعد (عاد).

ولقد أفاضت المصادر العربية الإسلامية في ذكر دلالة تسمية حضرموت، ومما جاء عندهم في هذا الأمر عدد من الروايات:

- **الأولى:** ترى أن عامر بن قحطان كان أول من نزل بالأحقاف، وكان إذا حضر حربًا أكثر من القتل فصاروا يقولون عند حضوره (حَضَرَ مَوتْ)، ثم صار ذلك عليه لقبًا وصاروا يقولون للأرض التي بها قبيلته الأرض (حضرموت)، ثم أطلق على البلاد ذاتها. ذكر ذلك أيضًا السيوطي في (حاشيته على شرح مسلم).

- **أما الرواية الثانية:** فتقول إن النبي صالح -عليه السلام- لما هلك قومه سافر بمن معه من المؤمنين فلما انتهى إليها -أي أرض حضرموت- مات فقيل حضرمَوت.

- **والثالثة:** تقول إن يعرب بن قحطان، وكان مُلكه باليمن، وقد تمكن من التغلب على بقايا عاد، ووزّع إخوته في الأقطار وممن أقرّهم أخاه واسمه (حضرموت) على الأرض التي عرفت باسمه فقيل لها (حضرموت).

وبحسب الباحث (محمد بن هاوي باوزير) فإن حضرموت ظلّت منذ العصور الغابرة تعرف بهذا الاسم من غير انقطاع، ولم يزل هذا الاسم، بل ظلّ متداولًا على الرغم من زوال مملكة حضرموت، كما حدث لشقيقاتها من الممالك العربية الجنوبية كما أن أكبر وديانها يعرف باسم وادي حضرموت حتى اليوم، ويبلغ طوله (١٦٠ كم)، يربط الأجزاء الغربية والشرقية من منطقتها، ويسمى أهل المنطقة (حضارم). ويطلق عليهم باللهجة الدارجة العامية (أبو حضرم).

صورة لأحد فروع وادي حضرموت

وقد كانت تعرف حضرموت عند الكلاسيكيين بأنها موطن البخور أو بلاد الطيوب، ويذكر أن أشجار البخور (اللّبان والمرّ والصبر) كانت تنمو بكثرة في أماكن متعددة من مملكة حضرموت. حيث كانت تستخدم بكثرة في المعابد لإجراء الطقوس الدينية وإتمام المراسيم المرافقة لتنصيب الكهنة والحكام إلى جانب استخداماتها في الطب والعلاج وفي تحنيط الموتى، ولهذا نشأت صلات تجارية بين حضرموت وكل من مصر والجزيرة العربية برًّا وبحرًا. ثم اتجهت سفنهم نحو عُمان والبحرين والعراق وشرق أفريقيا ثم إلى شرق آسيا عمومًا. وعند ابن خلدون فإن حضرموت معدودون في العرب العاربة؛ لقرب زمانهم وليسوا من العرب البائدة لأنهم باقون في الأجيال المتأخرة.

وعند صاحب كتاب (الإفادة في معرفة الصحابة) فإن حضرموت اسم إنسان واسم مكان، وذكر الإخباريون أن اسم حضرموت جاء في التوراة سفر التكوين إصحاح (١٠)، أنها بلاد تقع إلى الشرق من اليمن على ساحل بلاد العرب، وفي كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي فإن حضرموت ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وعنده أيضًا **سمّيت حضرموت بحاضر ميت وهو أول من نزلها، ثم خفّف بإسقاط الألف**، ويقول الشيخ الإمام (محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي): (حضرموت اسم بلد وقبيلة أيضًا، وهما اسمان جُعلا واحدًا). ومن الأمور التي تجدر الإشارة إليها: أن اسم حضرموت الاسم الوحيد من أسماء الممالك اليمنية الذي ظل معروفًا ومشتهرًا منذ العصور القديمة التي سبقت ظهور الإسلام حتى يومنا هذا.

ذكر المؤرخ وعالم أنساب وأخبار العرب (ابن الكلبي): اسم حضرموت في التوراة (حاضر ميت) وقيل: سمّيت بحضرموت بن يقطن بن عامر بن شالخ. وقيل: اسم حضرموت (عمرو بن قيس بن معاوية)، وقيل: حضرموت اسمه عامر بن قحطان، وإنما سمي حضرموت لأنه كان إذا حضر حربًا أكثر فيها من القتل فلُقّب بذلك، ثم سكّنت الضاد للتخفيف.

ويذكر (أحمد سعيد باحاج) في مقدمة كتابه (الرحلات والدراسات الجغرافية لحضرموت) أنه في سفر التكوين عرف اسم حضرموت في الجزء العاشر، صفحة ٢٦ تحت اسم (حزارماوِث Hasarmaweth or Hazarmaveth). أما الاغريق فكانوا يتداولون اسم حضرموت بلفظ أدراميتا (Adramytta)، في حين عرفت حضرموت في عهد الرومان ضمن المصطلح التاريخي (اليمن السعيد أو العربية السعيدة) (Arabia Felix)، على أن هناك بعض المصادر التاريخية التي تشير إلى أن اسم حضرموت إنما هو في الأصل اسمًا مهريًا كاسم ديعوت وسيحوت ورخيوت وضبوت.

وفي كتاب (حضرموت) للمستشار البريطاني (إنجرامز) ذكر أنه: **"ليس من السهل تحديد المناطق التي تشملها حضرموت. فلو أُخذ أصل الكلمة لوجد أنها تدل على اسم قبيلة استقرت منذ فترة موغلة في القدم في هذا الوادي فحمل اسمها. ففي العبرية ظهرت بلاد حزرمافت في الصحاح"**. ويضيف: "ويتحدث الجغرافيون الكلاسيكيون عن شعب أدراميتا ADRAMITTA وشتراموتيتا CHATRA MOTITAE وسمّوا البلد أدراميتا ADRAMITTA"، والمصطلح في دائرة المعارف البريطانية يعني: **"حضرموت عبارة عن مقاطعة أو إقليم في الساحل الجنوبي للجزيرة العربية تحدّها من الغرب اليمن، ومن الشرق عُمان ومن الشمال الدهناء"**.

حضرموت يظهر اسمها (HAZARMAVETH) كما في سفر التكوين

خريطة قديمة توضح اسم حضرموت (EL HADRAMAET)

يذكر الرحّالة (دانيال ميولين) أن التسمية الأقرب قبولًا لدى أهل حضرموت هو ما يتصل بنبيهم هود. فقد كانت آخر كلمات هود -عليه السلام- عندما وصل نهاية رحلة عمره ولم يستجب أهل عاد لدعوته أن قال "حضر الموت"، وهو يشير بهذا التعبير إلى قرب أجله كما يشير إلى نهاية قوم عاد الذين دمرهم الله. وينقل (ميولين) عن البروفيسور الألماني (موردمان Mordtmann) **"أن أهل حضرموت اشتهروا بقدراتهم القتالية منذ زمن بعيد. وحسب قوله، فقد ورد اسم البلاد وملوكها في أكثر النقوش السبئية قدمًا، ومرة أخرى في النصوص اللاحقة. وقد قيل الكثير عن الحروب مع حضرموت. ولا توجد أدلة توحي بأن الحضارم قد قُهروا في أي وقت بواسطة جيرانهم، السبئيين والمعينيين، وفي زمن علماء الإسكندرية كانت لهم مملكة منفصلة؛ وتم تسجيل هذا بإجماع موثوق به، وكان لهم إلاههم القومي (سين)، مثلما كان للمعينيين (عشتار)، وللسبئيين (المقه)، ولشعب قتبان (آم) و(أنباي)، وحافظوا أيضًا على لهجتهم حتى القرن السادس من عصرنا".**

يؤكد هذا الكلام الأديب والشاعر (علي أحمد باكثير) في كتابه (ابن الأحقاف) بقوله: **"وليس هناك من ينكر معالم الحضارة الخالدة والمدنية الزاهية التي سطع نورها في غضون التاريخ في الركن الجنوبي من الجزيرة العربية، فأضاء بطاحها وهضابها ردحًا من الزمن بأبهى ما في المدنية من مفاخر وأزهى ما فيها من حسن وفن وجمال"،** ويضيف (باكثير): **"لقد تعاقبت على الركن الجنوبي من الجزيرة سلسلة من المدنيات الخالدة، أولها مدنية المعينيين ثم تلتها مدنية السبئيين التي أشاد القرآن الكريم بذكر ملكتها الحسناء (بلقيس)، فقحطان فالحميريين، وشهدت حضرموت في غضون هذه الفترة الزاهية عهدًا سعيدًا وحياة زاخرة بمعالم الفن والجمال خلدتها لها الأيام بفضل ما بقي على تربتها الطاهرة من آثار ومعالم خالدة".**

يذكر الرحّالة الألماني (هانس هيلفريتز) في كتابه (اليمن من الباب الخلفي) **أن الحضارمة، وهو الاسم الذي تطلقه التوراة على هذه البقعة من الأرض، كانت معروفة لدى الأقدمين.** ويضيف (هيلفريتز) في كتابه (الجنوب العربي المنسي): **"لا يستطيع أحد اليوم أن يصف هذه الأرض بأنها أرض عقيم (غير خصبة)، بل العكس هو الأرجح؛ فيمكننا أن نقبل بأن لفظة حضرموت العربية تحمل في طياتها معنى الحضر والحاضرة، بمعنى منطقة التمدّن وأرض العمران، على عكس البادية التي هي منطقة الصحاري والمراعي. وعلى أية حال فإن هذا التفسير هو الأقرب إلى الصواب من ذلك الذي يريد أن يجعل من مرتفعات الجنوب العربي أرضًا للموت"،** وقد أطلق عليها بليني (Pliny) -الخطيب والمؤلف الروماني المشهور- اسم **(الحضارة العليا)**، عانيًا به معنيين: أحدهما **ارتفاع المكان وعلوّه،** وثانيهما **رخاء أهله وأوضاعهم.** ولا ريب في أن حضرموت كانت وافرة

الثراء للغاية، إذ كانت المصدر الرئيس لنتاجين كانا من أهم المنتجات في العصور القديمة، وكان الأقدمون يدفعون فيهما أغلى الأثمان وهما البخور والمرّ. وأصبحت حضرموت منذ ذلك الحين تسمى بلاد البخور. يقول (إنجرامز): **"فيذهل المرء كيف عرف القدامى عن بلد نحن نجهل الكثير عنه اليوم. أما كيف عرفوا ذلك القدر عن البلد، فيعود كما تشير النصوص إلى تجارة البخور"**. ثم يذكر (إنجرامز) أهمية هذه البضاعة في العالم المتحضر لطقوسهم الدينية. وقد ازداد الطلب على هذه السلعة عند استخدام الفراعنة له لتحنيط موتاهم.

وذكر الكاتب (عوض مبارك بامؤمن) في كتابه (الإيلاف في تاريخ بلاد الأحقاف) أن أول من سكن حضرموت من العرب البائدة هم عاد قوم النبي هود -عليه السلام- ثم سكنها العرب العاربة القحطانيون أو اليمنيون نسبة إلى موطنهم اليمن، ومنهم نشأت في اليمن دول معروفة كالمعينين والسبأيين والحميريين. وأن القحطانيين عاشوا قرونًا طويلة قبل الميلاد وهم أول من سكن حضرموت بعد عاد قوم النبي هود - عليه السلام.

كانت التسمية -حضرموت- تطلق أولًا على وادي حضرموت فقط بالرغم من التداخل السكاني فيما بين الساحل والداخل. ثم في زمن ما من التاريخ الوسيط امتد الاسم وأصبح يشمل حضرموت المعروفة حاليًا - أي حضرموت الساحل وحضرموت الداخل. وتبعًا لذلك أصبح سكان حضرموت الأولون جميعًا قبائل حضرموت والصدف، وكندة، وسيبان وهمدان وغيرها، والقبائل الناقلة التي أتت في وقت لاحق يسمون بالحضارمة نسبة إلى الأرض ويسمون أيضًا (الحضرميون) أو (الحضارم)، وتشكلت بين هذه المجموعات السكانية ثقافة متجانسة الأمر الذي أفضى إلى ظهور حضرموت بصفتها منطقة تاريخية ثقافية.

ورد اسم حضرموت في الشعر الجاهلي في مثل قول الشاعر (عبد يغوث الحارثي):

أَبَا كَرِبٍ وَالأيهَمَينَ كِلَيهِمَا وَقَيْسًا بِأَعْلَى حَضْرَمَوتَ الْيَمَانِيَا

يعتقد الجيولوجيون أن وادي حضرموت الجاف حاليًا كان في فترة سابقة نهرًا يتدفق نحو الشرق، تصبّ فيه روافد لا حصر لها؛ هي تلك الوديان الصغيرة التي تؤدي إلى وادي حضرموت. وأن هذا الوادي كان من أنسب مناطق الجزيرة العربية للاستيطان خلال العصر البرونزي وأن اتّساعه وقرب مخزون المياه من سطحه فضلًا عن تربته الغرينية؛ أتاحت لساكنيه زراعة المحاصيل الجيدة وأنه من المحتمل أن يكون ذلك الوادي عرف الحياة البشرية قبل أن تعرفها المناطق الغربية من اليمن التي تفتقد ميزاته. وقد سُمّي وادي حضرموت في عهود قديمة بوادي الأحقاف، والأحقاف جمع (حِقْف) وهو كثيب الرمل. ذكر (الناخبي) عن قوم (عاد) أنهم **أمة قديمة وأنها دولة عظمى ذات قوة ومنعة**

وثراء، وهذه الدولة هي عاد الأولى التي يتفق المؤرخون أن منازلها تقع ما بين حضرموت والبحرين واليمن، وتسمى المواقع التي سكنتها بالأحقاف، وقد جاء ذكرها في الكتاب العزيز في عدة مواضع. وينقل عن (ياقوت الحموي) بعد أن ذكر أقوال (بن جرير الطبري) حول موقع الأحقاف من أقوال (بن عباس) و(بن إسحاق) و(قتادة) فيقول: "والصحيح: ما رويناه عن ابن عباس وابن إسحاق وقتادة: أنها رمال بأرض اليمن، كانت عاد تنزلها".

إن تسمية الحضرمي، والجمع حضارم هي التسمية التي يحب أهل حضرموت أن يسمّوا بها وهي تسمية قديمة سُمّوا بها نسبة إلى الأرض، إلا أنهم لم يسمّوا حضارم في مهاجرهم غير العربية إلا في نطاق ضيق جدًّا. إذ كانوا يسمون بانتمائهم الأوسع عرب (معْرَابُو) بالسواحليّة، و(عرب) بالصوماليّة، و(تُوَانْ عرب) بالإندونيسيّة، و(عَرَبْ صَاحب) بالهنديّة.

تعدّ حضرموت كبرى محافظات الجمهورية اليمنية مساحة. وموقعها إلى الشرق من صنعاء على امتداد وديان واسعة وبين السلاسل الجبلية وصحراء الربع الخالي. ازدهرت أول حضارة فيها في الألف الأول قبل الميلاد. وعاصمتها المكلاّ وهي أحد الموانئ البحرية على مشارف البحر العربي. تبلغ مساحة حضرموت حوالي (١٦١,٧٤٩) كم٢، وتشكل حضرموت حوالي (٣٦٪) من مساحة الجمهورية اليمنية. وتحظى مدينة المكلّا بأهمية بالغة بعد صنعاء وعدن.

خريطة فضائية لمحافظتي حضرموت والمهرة في شرق اليمن، تُبرز مواقعهما الساحلية، وتُحدد الخريطة المدن الرئيسية والمناطق المحيطة بها

صورة حديثة توضح جمال الطبيعة في حضرموت - تصوير الباحث أحمد باتيس

شجرة اللبان في حضرموت والتي تعتبر جزءًا أصيلًا من تاريخها وثرواتها الطبيعية

لحضرموت مكانة استراتيجية، جذبت أطماعًا دينية واقتصادية واستعمارية، وذلك بسبب موقعها التجاري وموانئها، وتعرضها لصراعات داخلية سياسية ومذهبية، وتدخلات خارجية شكلت تاريخها الاجتماعي والمذهبي والثقافي.

الأهمية الجغرافية لحضرموت

إن الموقع الاستراتيجي لحضرموت جعلها عرضة لأطماع كثير من الدول الاستعمارية وكذلك الإقليمية والتي تربطها معها مصالح مشتركة كاللغة والدين والعرق والجنس، ولكن تختلف الدوافع حسبًا لنوع الحملات.

دوافع الحملات الأجنبية على حضرموت:

دوافع دينية:

في الدراسة البحثية والتاريخية التي قامت بها الأستاذة (شيخة باشعيب) عن ميناء الشِّحر في القرن العاشر الهجري (السادس عشر ميلادي) أشارت فيها إلى أنه يعتبر الدافع الديني في مقدمة الدوافع الاستعمارية الأوروبية التي جعلت من العالم الإسلامي ومن المسلمين هدفًا رئيسًا لتحقيق الأطماع الاستعمارية، وأن البرتغال من أكثر الدول اهتمامًا بهذا الأمر، بسبب قربها من أحداث الصراع بين المسلمين والمسيحيين في إسبانيا، بالإضافة إلى الفكرة التي سيطرت على البرتغاليين، وهي تغيير دين المسلمين إلى المسيحية في كل مكان يوجدون فيه. والباحثة تشير إلى أننا يجب عدم إغفال هذا الدافع في جميع الحملات على أوطاننا العربية والإسلامية بما فيها حضرموت.

تستدل الباحثة على ذلك بالروح الصليبية الحاقدة عند البرتغاليين أيضًا من خلال الأعمال التي كان يقوم بها القائد البرتغالي (فاسكو دا جاما)، فقد كانت حملته عام (٩٠٣هـ / ١٤٩٧م)، حملة صليبية واضحة، تتخفى بثياب العلم والاستكشاف. وقد عبّر الملك البرتغالي (عما نويل - الأول) في خطبة طويلة عن أغراض تلك الحملة، حيث ذكر أن الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق. وكانت سفينة (فاسكو دا جاما) مزودة بالمدافع كما علّق فوق ساريتها علمًا رسم عليه صليب ضخم. وكان يقطع الطريق على أية سفينة يلتقي بها في طريقه، كما كان يعمل على تفريغ السفن مما بها من البضائع، ثم يصدر أوامره بعدم إخراج المسلمين من تلك السفن، ومن ثمّ يتم إحراقها بمن فيها. ومن ذلك أيضًا إغراقه سفينة في خليج عُمان كانت تنقل الحجاج من الهند إلى مكة وكان بها حوالي مئة حاج حيث أعدمهم جميعًا. يؤكد هذه الدوافع الدينية المؤرخ (زين الدين المعبري) بقوله: **"ثم إن بغيتهم العظمى وهمّتهم الكبرى قديمًا وحديثًا؛ تغيير دين المسلمين وإدخالهم في النصرانية".**

تخلص الدراسة التاريخية للباحثة (باشعيب) إلى أنه **كانت الروح الصليبية ونشر المسيحية في أنحاء الشرق الأدنى هي الدافع الأساس والمحرك للكشوف الجغرافية. وخير دليل على ذلك أن المكتشفين البرتغاليين كانوا يتركون آثارًا تدل عليهم وعلى أهدافهم الصليبية أينما حلّوا وحيثما ارتحلوا. فقد كانوا يقيمون صلبانًا أو أعمدة تحمل**

صلبانًا، وأحيانًا كانوا يحفرون هذه الصلبان على قشور الأشجار أو سيقانها، كما كانت كتاباتهم على الأعمدة الحجرية تنتهي دائمًا بصليب في أعلاه؛ لاعتقادهم أنهم يباركون بعملهم هذا تلك الأماكن التي وصلوا إليها.

ومن ثم يمكن القول إن الدافع الديني في غزو البرتغاليين لموانئ جنوب شبه الجزيرة العربية بما فيها مينائي الشّحر وعدن كان من أهم الدوافع الصليبية الاستعمارية في الوصول إلى الأماكن الإسلامية المقدسة من خلال تلك الموانئ. وبحسب الباحثة (باشعيب) فقد كان كذلك للدعم الكبير الذي قدمته البابويّة لحركة الكشوف الجغرافية عن طريق دعوة ملوك أوروبا إلى مؤازرتها لمواجهة الإسلام وصدّه عن أوروبا دور مهم في تفاقم تلك الروح الصليبية الحاقدة في نفوس البرتغاليين والإسبان، حتى لقد أصبح تدمير المقدسات الإسلامية في الحجاز هدفًا مهمًّا من أهداف النشاط البرتغالي في المياه الشرقية الإسلامية، وفي إطار تلك الجهود أصدر عدد من البابوات مراسيم متلاحقة، يهبون بها ملوك إسبانيا والبرتغال الحق في ملكية كل إقليم جديد، أو كل بحر جديد يتم اكتشافه في الحاضر والمستقبل. لذا في تقديري (المؤلف) كانت موانئ حضرموت من ضمن أهدافهم الاستراتيجية. إلا أن جميع جهودهم في تنصير أهالي مدن الساحل باءت بالفشل فقد تغلغل الدين الإسلامي في قلوب أبناء حضرموت، وكان البرتغاليون أسوأ سفير لدينهم المحرّف فقد نكّلوا بأهل الشّحر ودمروا بيوتهم وصادروا أموالهم وحاولوا نشر ثقافتهم ومعتقداتهم، ولكن أنّى لهم ذلك.

دوافع اقتصادية:

أوضحت الدراسة البحثية التي قامت بها (د. نجلاء بن عقيل) و(د. عبدالعزيز بازرعة) والتي نشرها مركز عدن للدراسات التاريخية، مدى الاهتمامات الأوروبية المبكرة بحضرموت، والتي منها: الموقع الجغرافي المهم لحضرموت على طريق التجارة. حيث تشكل حضرموت أهمية استراتيجية بحكم موقعها، وامتلاكها للعديد من الموانئ المهمة التي لعبت دورًا نشطًا في مجال التبادل التجاري، وكذلك مساهمة أبناء حضرموت في نشر الإسلام ومشاركتهم في الفتوحات الإسلامية، وهجرة أعداد كبيرة منهم إلى الخارج كفاتحين أو تجار، ووجود علاقات تجارية واسعة لحضرموت مع العديد من أقطار آسيا وأفريقيا، كما أنها منطقة واسعة المساحة غنية بمواردها وقد أتى هذا الغِنى من السيولة النقدية التي تنهمر عليها من مهاجريها، ووفرة حاصلاتها غالية الثمن. إضافة إلى ما ذكره (د. محمد هاوي باوزير) -أستاذ تاريخ اليمن والجزيرة العربية بجامعة عدن- من استحواذها على زراعة محاصيل كان الطلب عليها كبيرًا كالمرّ واللّبان والصبر، والمعروف أن هذه السلع كانت تشكل العمود الفقري لتجارة مملكة حضرموت، بالإضافة إلى ما كان يصلها من بضائع أسيوية مستوردة

من الهند وسيلان والصين وأفريقيا خصوصًا من شرق أفريقيا، كالتوابل والمنسوجات والأخشاب والعاج وغيرها التي كانت -هي الأخرى- لها رواج عند شعوب العالم القديم.

كما سبق الإشارة في الدراسة التاريخية التي أوردتها الباحثة (باشعيب) إلى الدوافع الاقتصادية أيضًا من الحملات الأوروبية لموانئ جنوب غربي شبه الجزيرة العربية، وما فعلهُ (فاسكو دا جاما) للسيطرة على تجارة التوابل والبهارات التي كانت تصدّر إلى أوروبا من الهند مرورًا بالموانئ العربية ثم إلى البندقية في إيطاليا وكان التجار العرب يسيطرون على تلك التجارة، فكانت تصل إلى إسبانيا والبرتغال بأثمان باهظة نتيجة لمرورها بعدة موانئ. وقد أشار المؤرخ (زين الدين المعبري) إلى أن طلب التوابل كان من بين أهم الأسباب التي دفعت البرتغاليين للقيام بحركة الكشوف الجغرافية في بلاد الهند والخليج العربي. وكان أن هاجم البرتغاليون (سقطرى) وأقاموا بها حصنًا للإشراف على تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي، وفي نفس العام استولوا على (مضيق هرمز) مفتاح الخليج العربي. إلا أنهم أدركوا أن سيطرتهم على تجارة الهند المارة بالبحر الأحمر والخليج العربي لن تتحقق إلا باستيلائهم على موانئ شبه الجزيرة العربية؛ لذا توجهت أنظارهم نحو تلك الموانئ لاحتلالها. وقد حدثت من جراء ذلك معارك يطول شرحها وليس هذا مجال بحثها؛ إلا أنه يجدر الإشارة إلى الدور العثماني في مواجهة البرتغاليين ومنعهم من السيطرة على المحيط الهندي وتمكنهم من عرقلة النشاط التجاري للبرتغاليين، وإفشال محاولتهم السيطرة على تجارة السلع الشرقية وعلى تجارة الهند المارة بالبحر الأحمر والخليج العربي، وإحباطهم لمحاولة التدخل البرتغالي في اليمن والسيطرة على مينائي الشِّحر وعدن، هذا إلى جانب الدور الكفاحي والدفاعي من قبل الأهالي وسكان المنطقة في حماية أرضهم وممتلكاتهم والدفاع عنها ببسالة، خاصة بعد انسحاب القوات العثمانية لاحقًا من البحار العربية الجنوبية.

دوافع استعمارية:

فبحسب الباحثة (باشعيب) نقلًا عن الكاتب (محمد عبداللطيف البحراوي) فإنه يعتبر توجّه الدول الأوروبية بأطماعها الاستعمارية نحو جنوب شبه الجزيرة العربية؛ من آثار الغزو البرتغالي لميناء الشِّحر وغيرها من موانئ جنوب شبه الجزيرة العربية، إذ إن نجاح البرتغاليين واحتكارهم لتجارة الشرق كانت مدعاة لمنافسة الهولنديين والإنجليز لهم للاستئثار بثروات تلك التجارة. وكان أن تم تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية، وشركة الهند الشرقية الهولندية. وبينما تركزت جهود شركة الهند الشرقية الهولندية في جزر الهند الشرقية (إندونيسيا والفلبين وماليزيا وغيرها)، انصرفت شركة الهند الشرقية البريطانية إلى (شبه جزيرة الهند) ذاتها، غير أن ذلك لم يمنع الشركتان من أن توسع أعمالهما في جميع السواحل الواقعة على طول الطريق إلى مناطق امتيازاتهما

ومن بينها سواحل البحر الأحمر والساحل الجنوبي للجزيرة العربية. وقد يبدو للعيان أن هذه أهداف اقتصادية بحتة وليس فيها ما يدلّ على هدف توسعي أو استعماري، لكن قد احتلت بريطانيا عدن في ١٩ يناير ١٨٣٩م على يد شركة الهند الشرقية لحماية مصالحها الاستراتيجية في البحر الأحمر والهند، واستمر الاحتلال قرابة ١٢٩ عامًا حتى استقلت جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م. استُغِلَت عدن كميناء وقاعدة بحرية ومستودع بحري، وتوسعت السيطرة البريطانية لتشمل مناطق واسعة عُرفت بـ "محمية عدن".

دوافع علمية بحثية واستكشافية جغرافية أو استخباراتية (تجسّسيّة):

إن الاهتمام الغربي الأوروبي بحضرموت وتراثها وتاريخها كان متأخرًا، وقد بدأ كما تظهر كثير من الدراسات في العقد الثالث من القرن السابع عشر برحلة الألماني (أدولوف بارون فون فريدا) في أول رحلة استطلاع لداخل حضرموت سنة ١٨٤٣م، ولكن الاهتمام الذي سبق ذلك بحسب (د. طه حسين هُديل) من كلية التربية بجامعة عدن في بحثه بعنوان (حضرموت في ظل الوجود الأيوبي)، بأن حضرموت شكّلت بمساحتها الجغرافية الواسعة واحدة من بين أهم المناطق اليمنية التي عرفت بأهميتها عبر مراحل التاريخ المختلفة، وقد كان للتنوع الطبيعي في تركيبتها الجغرافية - التي جمعت بين السهل والجبل والصحراء، وموقعها البحري على طريق التجارة الدولية بين الهند والجزيرة العربية وقارات العالم المختلفة - أثره في زيادة أهميتها الاستراتيجية والتاريخية وزيادة أطماع القوى المحلية المجاورة لها، أو الدولية المحيطة ببلاد اليمن وغيرها.

لقد قامت عدة بعثات إلى حضرموت بهدف دراسة الاستكشافات الآثارية والنقوش التي وجدها كثير من الرحّالة الغربيين في عدة مناطق من مملكة حضرموت القديمة في (ريبون وشبوة وبئر علي ومكينون وغيرها)، كالبعثة الفرنسية والبعثة الروسية والبعثة الإيطالية والتي أظهرت أنه كان لكل مملكة من ممالك جنوب الجزيرة العربية لغتها ونظامها السياسي والاجتماعي ومجمع الآلهة الخاص بها، كما تشير تلك النقوش إلى النزاعات والحملات العسكرية والحروب التي قامت بين الممالك القديمة والعلاقات التجارية بينها. كما تذكر أسماء الملوك الذين حكموا تلك الممالك. كما دلت بعض النقوش على الدور الذي لعبته حضرموت في تجارة اللّبان.

أما عن الدوافع الاستخباراتية فهي أسلوب قديم وحديث ولا تكاد تخلو دولة من دول العالم القديم والحديث من ممارسة هذا الأسلوب لحماية أوطانها أو لمعرفة أخبار وأحوال غيرها، يذكر (د. مسعود عمشوش) عن رحلة (فيلبي) إلى حضرموت أنه حينما استطاعت

الدول الغربية أن تضع يدها على تركة الدولة العثمانية في الشرق الأوسط، لجأ عدد من الغربيين إلى الانخراط في سلك العمل العسكري أو الدبلوماسي أو الاستخباراتي لدولهم، بغرض القيام برحلات استكشافية في الأراضي المحرمة.

وها هو الرحّالة الألماني (هانس هيلفريتز) يصف رحلة الألماني (أدولف فريدا) والتي تمكّن فيها من الوصول إلى داخل أعماق حضرموت ووادي دوعن يصفها بأنها: **"كانت أولى المحاولات الجادة والناجحة في نفس الوقت في تسلل واختراق حضرموت، والذي استطاع أن يتواجد هناك بحجة زيارة قبر النبي هود عليه السلام، وبدأت رحلته في عام ١٨٤٣م، تنكّر في رحلته تلك على أنه مصري انطلق من بروم والمكلّاَ، وسمي عبدهود، وعمل أيضًا كجاسوس سياسي لنائب السلطان المصري السابق محمد علي، نظرًا لأنه عاش فترة طويلة في مصر وأتقن اللهجة المصرية".**

وبحسب الدكتور (عبدالله الجعيدي) رئيس مركز حضرموت للدراسات التاريخية، عند تحليله لدوافع رحلة الرحّالة الهولندي (دانيال ميولين) لحضرموت عام ١٩٣١م، حيث يقول (د. الجعيدي): "في عام الرحلة (١٩٣١م) كانت حضرموت بسلطنتيها الكثيرية والقعيطية واقعة تحت الحماية البريطانية؛ ولهذا جاءت الموافقة على الرحلة عبر البوابة البريطانية، وقد تبرز هنا تساؤلات من قبيل: لماذا هذا التغلغل الهولندي في منطقة واقعة تحت النفوذ البريطاني؟ وماهي مكانة حضرموت بالنسبة للهولنديين البعيدة عن مناطق نفوذهم الاستعماري في أقصى الشرق؛ والإجابة عن ذلك ببساطة أن نسبة كبيرة من المهاجرين الحضارمة إلى جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) يعدّون رعايا تحت الحكم الهولندي الاستعماري، وكانوا في مهجرهم الشرقي جالية لها وزنها الاقتصادي الكبير، وتأثيرها الديني القوي على سكان هذه الجزر، **ولهذا كان الفضول السياسي (الاستخباراتي) هو الدافع الرئيس لهذه الرحلة".**

ولكن (د. الجعيدي) كان منصفًا عندما ذكر في تحليله لرحلة (ميولين) بأن فيها جوانب أخرى أيضًا غير استخباراتية، حيث يقول: "وإذا حيّدنا هنا الأهداف الاستعمارية أو الاستخباراتية لرحلة ميولين، فإننا سنجد لها فوائد للمشتغلين بالدراسات الإنسانية، ومنها علم التاريخ. فالرحلة المدوَّنة هي تسجيل حي لواقع الحال كما هو، لكن مع مرور الزمن نجد أن معلوماتها قادرة على سد بعض الثغرات التي تصمت أو تغفل عنها مصادر التاريخ". وهذا لعمري قمة الإنصاف فلا يجب أن يدعونا التحيز عند قراءة كتب التاريخ ورحلات المستكشفين وغيرهم من أن نذكر سلبياتها وإيجابياتها، وأن نتحرّر من التحيز المفرط، فلا إفراط ولا تفريط. حيث يقول مترجم كتاب (ميولين) الدكتور (محمد سعيد القدّال) -رحمه الله -: "إن الرحلة تصوّر- بكثير من الصدق. انطباع الأوروبيين عن الحياة في بلاد العرب. ونحن بحاجة لمعرفة رأي الآخر فينا؛ لأنها تبرز إيجابيات مجتمعنا كما تبرز

السلبيات، وهذا لا يعني أن نأخذ بهذه الانطباعات دون تمحيص ورويّة، بل علينا أن نتدبرها". وقد لفت نظر الرحّالة (ميولين) عند زيارته حضرموت التناقض العجيب بين حياة بعض الأثرياء وبين حياة عامة ومعظم الشعب، لا سيما عندما يدخل بيوت الأثرياء الحضارمة. يرى ذلك البون في مستوى المعيشة بينهم وبين أغلبية السكان، وفي مثل هذه المناسبات كان يتساءل باستنكار: هل هذه فعلًا حضرموت المنعزلة المتعصبة؟! ودائمًا ما يكرِّر انتقاده لهؤلاء الأثرياء؛ لتقصيرهم في خدمة مواطنيهم.

يوضح (د. الجعيدي) أيضًا أن الرحّالة الهولندي (ميولين) لاحظ بعين ذكية وجود ثلاثية تسيطر على تفكير الحضرمي العائد لبلاده؛ (المنزل - المسجد - القبر)، فهو يريد المنزل سكنًا يقضي فيه ما تبقّى من حياته في الدنيا، والمسجد ليبني له الله منزلًا في الجنة، والقبر مرحلة انتقالية بين المنزلين، وفي هذا المشهد الثلاثي يرى (ميولين) حظّ المساجد كبيرًا من حيث الصرف بسخاء في إعمارها؛ لهذا يكثّف تعليقه الناقد بالقول: **"مساجد فارهة في بلاد حضرموت الفقيرة"**، وهذه ملاحظة جديرة بالانتباه، وقد ذكرنا سابقًا عن كثرة عدد مساجد تريم وغيرها، ويجدر بكل عاقل أن يقف وقفة بينه وبين نفسه قبل القيام بأي باب من أبواب الخير، هل هو للمباهاة والسمعة؟ أو للأجر والمثوبة؟ تجد هذا التناقض أيضًا في القصور الفارهة للسلاطين وحاشيتهم وحولها الأفواه الجائعة والملابس الرثّة.

أفواه جائعة وأجساد عارية ومن خلفها قصور شامخة

في الدراسة التي قام بها المؤرخ الروسي (ميخائيل روديونوف) حول تحوّل الهوية العرقية والطائفية لسكان حضرموت، ينقل (رودينوف) عن المستشار البريطاني إنجرامز قوله: "في هذا البلد يمكن أن تجد تناقضات جدًا غريبة بدءًا من مظاهر الرفاهية المغالية والراحة إلى الفقر المدقع، ومن المستوى العالي من الثقافة إلى الوحشية الكاملة. والطبقات الفقيرة في المدن عادة لديهم دخل كاف لتوفير الطعام لأنفسهم، لكن لا يمكنهم الربح والادخار، في حين يعيش البدو على حافة المجاعة. بالإضافة إلى ذلك توجد مستويات عالية من القيم الاخلاقية عند البدو، ولكن في المدن وبالذات الساحلية منها تنتشر الرذائل بشكل كبير، في حين أن السرقة كانت أمرًا نادر الحدوث. وينتشر الالتزام بالطقوس الدينية بين الحضر، ولكن (الأتقياء) بينهم قليل، فهم يبرزون كالمنارات. لا يلتزم البدو بالطقوس الرسمية إلا قليلًا (بعض القبائل نادرًا ما تصلي أو تصوم)، لكن معايير الشرف لديهم عالية، وهؤلاء الناس مسلمون بالفطرة، وتعلّموا من خلال الدروس الصعبة الخضوع المطلق لإرادة الله. ويكون التعصب الديني أكثر وضوحًا لديهم حينما يكون تأثير السادة أقوى. وفي مواقف أخرى يلاحظ لديهم قدر كبير من التسامح، وبالنسبة للبدو فإن الصفات الإنسانية أكثر أهمية من الانتماء الديني".

يقول الرحالة الأمريكي (صمويل زويمر): "يشبه قصر السلطان في سيئون بفنادق نيويورك، في حين كانت رفاهية الحمامات والولائم تتجاوز الخيال. في المكلا"، كما يروي إنجرامز: "جلسنا خمسون شخصًا لتناول العشاء، وبين أشياء أخرى أكلنا خروفًا كاملًا، وثلاثة ماعز كاملة وخمسًا وعشرين دجاجة، وخمسين رطلًا من الأرز، وخمسة وعشرين رطلًا من السمن، وكمية ضخمة من الأسماك والخضروات والحلويات". إن الترف والسرف عاقبته وخيمة.

وهكذا نجد أن للرحّالة والمستكشفين أهدافًا متعددة من خلال ما يقومون به من رحلات لغير بلادهم، فما قام به (ميولين) من وصف دقيق في زيارته حتى لأعداد سكان بعض المدن والبلدات الحضرمية الرئيسة مثل المكلا والشحر وشحير وشبام وتريم وحريضة وغيرها تدخل في صميم الأهداف الاستخباراتية (بحسب د. الجعيدي)، وكان من نتائج رحلة (ميولين) أن اتضح لهولندا أن حضرموت لا تمثّل ثقلًا سكانيًا، أو حضاريًا، أو حتى اقتصاديًّا يمكن أنْ يهدّد المستعمرات الهولندية.

الرحّالة الهولندي ميولين وزميله الجغرافي فيسمان
في ضيافة الحبيب مصطفى بن أحمد المحضار
في منزله بوادي دوعن - مايو ١٩٣١م

دوافع إسلامية ومذهبية وإقليمية:

لقد قامت الدولة الأيوبية في مصر على أنقاض الحكم الفاطمي، وعلى يد صلاح الدين الأيوبي الذي تمكّن من قهر الصليبيين في عدة وقائع من أشهرها معركة (حطّين)، كما تمكّن من فتح القدس، وبذلك انتشر نفوذ الأيوبيين إلى العراق وسوريا والحجاز واليمن. ومن المعروف أن هناك دوافع سياسية واقتصادية ودينية جعلت بني أيوب يفكرون في غزو بلاد اليمن عامة، **إلا أن الهدف السامي من وراء هذا الغزو لليمن هو حاجتهم إلى إعادة توحيد صفوف الأمة العربية والإسلامية، ولمّ شملها لمواجهة خطر الغزو الصليبي والمغولي الذي أصبح يهدد ممتلكات المسلمين وأراضيهم المقدسة**، وبالنسبة لحضرموت فقد كانت الرغبة في ضم هذا الإقليم المهم إلى كيان الدولة الأيوبية التي كانت قد سيطرت على معظم الأراضي اليمنية باستثناء حضرموت التي كانت تعدّ جزءًا مهمًّا من اليمن، ولا يمكن فصلها عنه. وبحسب المؤرخ (بامطرف) فإن من أسباب قدوم الأيوبيون إلى

حضرموت؛ الفوضى العشائرية التي استبدت باليمن فاستنجد أهلها بالخليفة الفاطمي بمصر وذلك قبل قيام دولة الأيوبيين فأمر وزيره صلاح الدين الأيوبي بنجدة اليمنيين، فبعث صلاح الدين أخاه توران شاه على رأس جيش كبير إلى اليمن، والذي قضى على الفوضى القائمة، ثم اتّجه الأيوبيون إلى عدن وأزالوا عنها ما بقي من حكم الصليحيين.

كما أن موقع حضرموت الجغرافي الحسّاس على ساحل بحر العرب، المعروف بأهميته بالنسبة للدول الكبرى، مثل الدولة الأيوبية التي أرادت بسيطرتها على حضرموت التحكم بخطوط التجارة البحرية القادمة من الهند أو المغادرة إليها، إلى جانب الأطماع المادية للدولة الأيوبية من خلال الضرائب والرسوم التي كانت تفرضها على أصحاب الأراضي الزراعية وسكان المدن وأمرائها مقابل حمايتهم. إلى جانب ما ذكرنا من أسباب عن قدوم الإيوبيين لليمن عمومًا.

لقد كانت تصرفات الأمراء الأيوبيين مع سكان حضرموت في غاية القسوة والعنف، فقد استباحوا الأموال والعلماء والرافضين لدخول الأيوبيين لبلادهم، ولم تأت سياسة العنف والإرهاب والحصار، وتغريم القبائل الأموال بالقوة إلا بمزيد من التمرد والعصيان والخروج عن الطاعة، وهكذا استمرت المناوشات بين الأيوبيين وأصحاب الأرض من القبائل والأهالي فترة من الزمن سالت فيها كثير من الدماء من الجانبين، حيث استمرت النزاعات بين الجانبين قرابة (٤٥) عامًا، إلى انتهت دولة بني أيوب في حضرموت سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م، بعد ضعفها وعدم قدرتها على إرسال مزيد من الإمدادات والدعم العسكري والمادي.

إن الإشارة إلى دخول الدولة الأيوبية إلى حضرموت وفرض سيطرتها على أراضيها، ما هو إلا مثال واحد على الأهمية الجغرافية التي اكتسبتها حضرموت عبر تاريخها العريق، وقد لحق ذلك محاولات شتى لقوى أخرى خارجية وداخلية للسيطرة عليها وبسط نفوذها واستغلال موقعها الاستراتيجي جغرافيًا واقتصاديًا، من تلك الدول التي امتد نفوذها إلى حضرموت (الدولة الرسولية من سنة ٦٣٧هـ إلى ٨٣٦هـ) و(الدولة الحبوضية من ٦٧٣هـ إلى ٦٧٨هـ)، أما الدويلات الحضرمية فهي (دويلة آل راشد، ودويلة آل دغار، ودويلة آل فارس، ودويلة آل يماني، ودويلة بني سعد وغيرها)، وشهد القرن السابع بداية بروز قبيلة آل كثير.

لقد كان من أفضل ما يقال عن دخول الأيوبيين إلى حضرموت هو إسهامهم في القضاء على المذهب الإباضي الذي انتشر في كثير من البلدات. وقد كانت السلطة الإباضية من العوائق التي حدّت من الانتشار الواسع للمذهب الشافعي في البداية، لكن لما جاءت الدولة الرسولية السنية الشافعية لحضرموت وظهرت بعض الدويلات المستقلة بعد ضعف الإباضية التي تبنت المذهب كسلطنة (آل راشد). أخذ المذهب الشافعي ينتشر على حساب الإباضية التي تلاشت تدريجيًا.

والإباضية هي فرقة من الخوارج وسميت بالإباضية نسبة إلى (عبدالله بن إباض). وكان من أسباب انتشار المذهب الإباضي هو جور بني أمية وتصدّع حكمهم وتعسفهم في حق أهل حضرموت، مما شجع النفوس للخروج عن الحكم الأموي. والحق يقال إن المذهب الإباضي لم ينتشر في جميع قرى وبلدات حضرموت، ولا يمكن القول إن جميع سكان حضرموت صاروا إباضية، وإن كانت سلطة القائمين بذلك المذهب كادت تعمّه في أزمنة قصيرة متقطعة، تتخللها هجومات من الخارج واختلاف في الداخل، بل إن النُّقول تدل على أنه بقي منهم من لم يدخل في ذلك المذهب، وبالجملة فالنّقول لا تدل على أن جميع أهل حضرموت أُكرهوا على انتحال عقيدة الإباضية ولا أنهم أجمعوا على ذلك اختيارًا، وهذا ما قرره العلامة (علوي بن طاهر الحدّاد) في كتابه (جني الشماريخ). ويرى العلامة (الحدّاد) **"أن ظهور الإباضية في حضرموت قد سبّب العقم وقلّة الخبرة لدى الحضارمة أكثر من قرنين من القرون الثلاثة التي هي خير القرون كما وصفها الرسول -ﷺ- ويتهمهم بأنهم خوارج ومؤجّجو فتن يشعلونها كلما طفئت، وأنهم قد حرموا حضرموت من الفيء والثروة والتجارة، فهم أصل مصائب وأصحاب شيطنة"**. ويرى الباحث (محمد بن أبي بكرباذيب) أن حضارمة الإباضية تعرضوا لكراهية العالم الإسلامي لهم بسبب ما فعلوه في الحرمين الشريفين، إذ قتلوا أبناء المهاجرين وأبناء الأنصار الذين دعا لهم رسول -ﷺ- وأخافوا أهل المدينة، فلا جرم أن أذابهم الله كإذابة الملح، فلم يعد من أقوامهم تلك إلا القليل، ثم كانت هذه الأعمال سببًا للهجوم على حضرموت وأهلها مرارًا من جيوش بني أمية وبني العباس.

وإن كان الكاتب (كرامة بامؤمن) لا يؤيد هذه الأقوال والأوصاف عن الإباضية بقوله **"وقد عورض الفكر الإباضي ووُجّهت إليه تهم خطيرة من خروج عن الدين إلى الانحراف والعقم في التفكير. وكلها مقولات لا تركن إلى حقائق ثابتة أو سند موثّق"**، ثم يضيف (كرامة): **"لم يكن الفكر الإباضي نحلة خارجة عن الملة الإسلامية، وإنما هو فكر منشقّ عن التيار الخارجي المتطرف. وليس ما يطرحه في أمر العقيدة ببدعة في الدين. وله اجتهاده وآراؤه العقدية شأنه شأن المعتزلة والأشاعرة وغيرهم. وله فتاويه الفقهية شأنه شأن مذاهب الفقه الإسلامي الأخرى. وهو بهذا الاتجاه يقترب من الفكر السني ويبتعد عن فكر الخوارج المتطرفين"**. ويعتقد (كرامة) أنه يمكن تشبيه الفكر الإباضي بالفكر الزيدي الشيعي المعتدل القريب من الفكر السني.

ولكن الروسي (فرانتسوزوف) يرى أنه إضافة إلى عدم رضا السكان عن تصرفات ولاة بني أمية وجورهم فإن الأسباب كانت أعمق من ذلك بكثير، ويعزو ذلك إلى **"التناقض المؤدي للصدام بين البنية المركزية الشديدة لدولة الخلافة وتبعية المنطقة لها، وبين ما اعتاده المجتمع الحضرمي من استقلالية إثنو- سياسية طويلة"** ويضيف فرانتسوزوف:

"ولتعمق مفاهيم الإسلام الكريم في وعي الحضارمة بشكل كامل، لم يكن بالإمكان تصور توق القبائل المحلية إلى الاستقلالية الموروثة عن الماضي، دون أن تجد سندًا أيديولوجيًّا لها في إطار العقيدة الإسلامية نفسها، يبرر مثل هذا التطلع، ولهذا كان تجمعها حول المذهب الإباضي: أحد تيارات الإسلام المعارضة للمذهب السني". وكلامه هذا خطير وكأنه يبرر للحضارمة -كما يبدو لي- أسباب أيديولوجية ومرجعية إسلامية في انحرافهم عن المذهب السني والقبول بالمذهب الإباضي الشيعي. ويرى فرانتسوزوف في موضع آخر من كتابه (تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبل الإسلام وبعده) أنه قد ساعد على انتشار هذا المذهب في أوساط الحضارمة وغيرهم من سكان جنوب الجزيرة العربية **"المبادئ الديمقراطية للإباضية التي تأثرت - مثلها مثل بقية تيارات الخوارج - بالتقاليد القبلية العشائرية للمجتمع العربي الأصيل. وكذا الطبيعة المعتدلة لهذا المذهب الديني السياسي، الذي يقر بمبدأ التقيّة (أي إخفاء اعتناق المذهب، إذا كان هناك احتمال وجود ضرر أو خطر في حالة الجهر به)؛ ويدعو إلى الحفاظ على العلاقات السلمية المتبادلة مع المسلمين غير الإباضيين، والذين يعتبرهم أنصار هذا المذهب من المؤمنين".** وأخذ يكيل المدح والثناء للمذهب الإباضي وإلى قياداته ومن التحقوا به.

ولكن الإباضية كغيرها من الحكومات لم تخْلُ من صراعات فيما بينها، فقد تفاقم الصراع بين قادتها في عُمان مما ألقى ذلك بظلاله على إباضية حضرموت، كما كان لانحلال الإمامة الإباضية في عُمان، وتوقف المساعدة التقليدية من إباضية تلك المنطقة لإخوانهم الحضارمة المشتركين معهم في العقيدة، وعدم مواكبة التعاليم الإباضية لاتجاهات التطور الاجتماعي والسياسي الجديدة؛ كان له دورٌ مهمٌ في اضمحلال المذهب الإباضي بحضرموت، ولم تذكر المصادر بقاء أي إمام إباضي بحضرموت بعد (أبي إسحاق إبراهيم بن قيس الهمداني)، ورغم كل ذلك فقد مرّ أكثر من مئة عام على أقل تقدير قبل أن يزول هذا المذهب نهائيًّا من حضرموت، وينتصر أهل السنة من أتباع المذهب الشافعي بشكل كامل في المنطقة.

ويعود الفضل أيضًا في انتشار المذهب السني الشافعي إلى وفود بعض علماء السنة إلى حضرموت، ورحلات طلاب العلم إلى خارجها الذي قد أفرزت مجموعة من العلماء الحضارمة ساعدوا على نشر المذهب. كما كان لانتشار التصوف في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي دور في انتشار المذهب الشافعي، والذي كان ظاهر التصوف هو الدعوة إلى الزهد والتحلي بالفضائل وترك الرذائل، والاعتكاف على الأذكار والأوراد والخلوات، وترك الاقتتال ونبذ السيف والنهب والسلب الذي كان شائعًا.

وقد كان من الأسباب المباشرة لانتشار التصوف هو اتصال بعض متصوفة العالم الإسلامي بحضرموت منهم الصوفي المغربي (شعيب أبو مدين التلمساني) شيخ الطريقة الصوفية الشعيبية الذي أرسل مندوبه (عبدالرحمن المقعد) إلى حضرموت، وأمره أن

يذهب إلى حضرموت ويحكّم أربعة من أهلها اختارهم وسماهم له، وكان من أهم ميزات انتشار التصوف في حضرموت هو الدعوة للسلام في قرن عاصف بالقلاقل والفتن والحروب والاقتتال؛ فترك كثير من الناس سلاحهم استجابة لدعوة العلماء.

لقد كان للأوضاع الداخلية لحضرموت، والصراع الدامي الذي كان دائرًا بين قبائلها المختلفة، وعدم وحدة كلمتهم، واختلافهم في أمور الحكم والنفوذ كانت من الأسباب الرئيسة التي سهّلت دخول القوات الأيوبية وغيرها إلى هذه المنطقة وإخضاعها بكل سهولة ويسر. ففي القرن السابع الهجري - الثالث عشر ميلادي بحسب الأستاذ (فايز محمد باعباد) الباحث في (مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر) لم تشهد حضرموت استقرارًا سياسيًا؛ وذلك لتنازع قوى سياسية متعددة من داخل حضرموت وخارجها مراكز النفوذ السياسي، وعانت من التجزؤ وكانت في كثير من المراحل مقسمة على أكثر من كيان سياسي، وكان ساحل حضرموت منفصلًا عن واديه تقريبًا، وكان الوضع الاقتصادي صعبًا بسبب عدم الاستقرار السياسي وبسبب الطبيعة الصحراوية وقلّة الموارد لذلك شهد هذا القرن عدة مجاعات. ويعزو المؤرخ الروسي (ميخائيل روديونوف) **أن عدم الاستقرار في جنوب الجزيرة العربية (اليمن) في ذلك الوقت، قد استغلته كذلك بعض القوى الخارجية - الإمبراطورية العثمانية وبريطانيا العظمى**. وعند حديثه عن تاريخ حضرموت يذكر (روديونوف) أنه **يمكن تصوّر تاريخ حضرموت ببساطة سلسلة غير متناهية من الاعتداءات الخارجية والحروب الداخلية والجهل. إن جميع القوى الاجتماعية المتصارعة هنا قد سعت إلى السيطرة على الموانئ وطرق قوافل الجمال والأسواق والأراضي الزراعية، وإذا تبين أن تلك الغاية بعيدة المنال، فإن الصراع كان يجري على قطع منفردة من الأراضي وحتى إلى الشِّعب أو العين أو البئر أو مجموعة أشجار.**

رحماك ربي بأرض حضرموت وأهلها فلا تكاد تنتهي من أزمة إلا وتتلوها أزمات، وحالهم كما قال أبو العتاهية:

تَأتِي المَكَارِهُ حِينَ تَأتِي جُمْلَةً وَتَرَى السُّرُورَ يَجِيءُ فِي الْفَلَتَاتِ

ويقول الإمام الشافعي:

مِحَنُ الزَّمَانِ كَثِيرَةٌ لَا تَنْقَضِي وَسُرُورُهُ يَأتِيكَ كَالأَعْيَادِ

ويقول البحتري في كثرة بلاويه:

فَقْرٌ كَفَقْرِ الأَنْبِيَاءِ وَغُرْبَةٌ وَصَبَابَةٌ لَيسَ البَلَاءُ بِوَاحِدِ

ومما ورد في تلاحق المصائب ما كتبه شكسبير في مسرحية (هاملت): عندما تأتي الأحزان، فإنها لا تأتي فُرادى جواسيس؛ بل في شكل كتائب (جيوش). (When sorrows come, they come not single spies But in battalions).

حضرموت تاريخ عريق وقديم تغيّرت حدودها عبر العصور، وشكّلها الموقع والتجارة. تفرّدت بساحل طويل ووادٍ عظيم وهضبة وصحراء، فكانت مركزًا تجاريًا مهمًّا وحضاريًا مؤثرًا. وأسهمت في تاريخ اليمن والجزيرة العربية.

حدود ومناخ حضرموت

الحدود التاريخية القديمة: أي قبل حوالي أكثر من ثلاثة آلاف سنة حيث كان يُطلق عليها مملكة حضرموت، وهي تمتد شرقًا إلى ظِفار، وغربًا إلى عدن، وشمالًا إلى رمال الأحقاف (الربع الخالي)، وجنوبًا إلى المحيط الهندي، وعاصمتها (شبوة).

ويذكر المؤرخ (الحدّاد) أن حضرموت كانت في الماضي البعيد مجاورة لمنازل (عاد)، وكانت مساكنهم بالأحقاف، وهي ناحية شمالي حضرموت تحاذي الناحية الشرقية منها، وكانت مكسوّة بكثبان من الرمل، فسميت بالأحقاف، وهو جمع حقف، وهو الكثيب المعوج من الرمل. إلا أن المؤرخ (محمد عبدالقادر بامطرف) في كتابه (المختصر من تاريخ حضرموت) يعقّب على هذا التصوّر بقوله: "يروق لبعض الإخباريين تسمية حضرموت بالأحقاف وذلك لأن كلمة الأحقاف ذُكرت في القرآن الكريم عند ذكر آل عاد، ولكن القرآن لم يحدد مكان الأحقاف ولا مكان آل عاد، ولم تدل النقوش الأثرية المكتشفة على مكان سُمّي الأحقاف، ولذلك تجد بعض واضعي الخرائط يطلقون اسم الأحقاف على مواقع عديدة في الجزيرة العربية". ويؤكد (بامطرف) أن عاصمة حضرموت القديمة هي مدينة شبوة وكانت مركزًا مهمًّا للقوافل. وأن حضرموت كانت موجودة في اليمن قبل قيام دولة معين وأن قدوم الحضارم إلى اليمن كان من شمال الجزيرة العربية وجنوب فلسطين، ولذلك عدّت أول الممالك اليمنية القديمة في التاريخ، وكانت حدودها الشرقية تشمل المهرة وظفار وكان يطلق على ملوكها اسم ملوك أرض اللّبان. إلا أن رأيه هذا يخالفه معظم من أشاروا إلى أن الأحقاف هي أرض حضرموت كالحامد والسقاف والناخبي والمقدسي والحموي والهمداني وابن خلدون وغيرهم.

وبحسب ما ذكره الباحث (مروان كرامه باخريصة) فإن حضرموت تقع في الجهة الجنوبية الشرقية من بلاد اليمن، وفي الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، وتختلف حدودها باختلاف المراحل التاريخية التي مرّت بها، فهناك مراحل من التاريخ كانت حضرموت مملكة كبرى، ومراحل أخرى كانت دولة مستقلة، وأحيانًا تكون إقليمًا أو مخلافًا تابعًا لدولة أخرى، أو ولاية تابعة لغيرها، وربما تكون بلدة مقطّعة الأوصال تضم في داخلها دولًا وممالك شتّى.

وبحسب (عوض بامؤمن) في كتابه (الإيلاف في تاريخ الأحقاف)، فلقد اختلف المؤرخون في حدود حضرموت فذكر بعضهم حدودها تتّسع وتضيق تبعًا للدولة أو الإمارة. وأن أقصى حدودها فيما تسمّى بحضرموت الطبيعية من عُمان شرقًا إلى مدينة شبوة في وادي عرمة عاصمة مملكة حضرموت القديمة ورملة السبعتين غربًا، ومن البحر العربي جنوبًا إلى رمال الأحقاف شمالًا. هكذا كانت حضرموت مخلافًا من مخاليف اليمن الثلاثة وهي: مخلاف صنعاء، ومخلاف الجند، ومخلاف حضرموت في أيام الخلافة الإسلامية. وهي جزء من الوطن اليمني وينتسبون إلى الأمة العربية المنحدرة من سام بن نوح.

أما بحسب (تقي الدين المقريزي) المتوفى سنة (٨٤٥هـ) من خلال مخطوط له بعنوان "الطرفة الغريبة في أخباروادي حضرموت العجيبة" والمقريزي أحد تلاميذ ابن خلدون الذي من أصول حضرمية ومن أشد المعجبين به، وعنده أن حضرموت هي البلاد الممتدة من شبوة غربًا إلى ظفار(في عُمان) شرقًا، ومن صحراء الربع الخالي شمالًا إلى ساحل بحرالعرب جنوبًا.

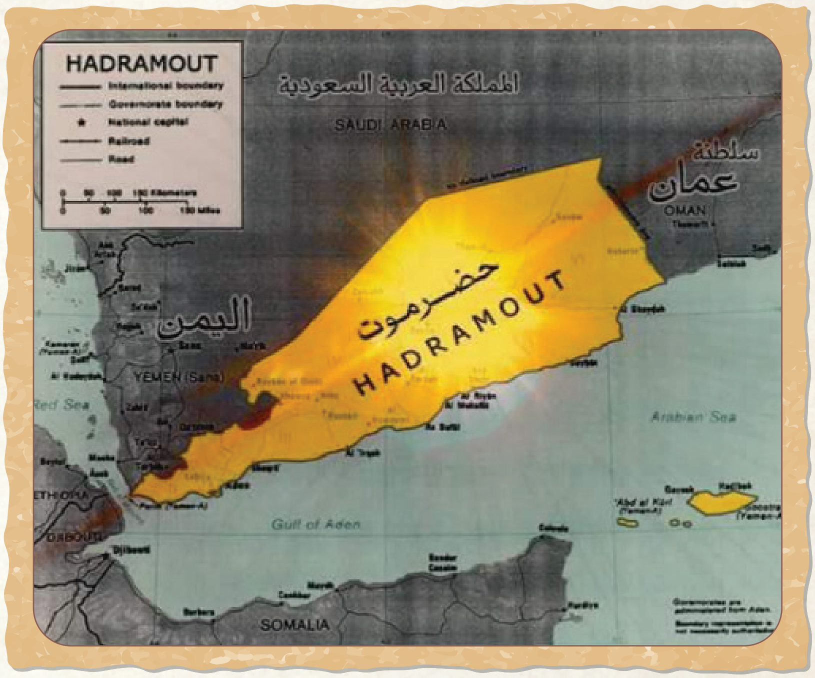

خريطة حضرموت الكبرى

أما بالنسبة للمؤرخ (محمد بن أحمد الشاطري) في كتابه (أدوار التاريخ الحضرمي)، فيذكر أنه قد اختلف المؤرخون اختلافًا كبيرًا في حدود حضرموت ويرجع ذلك في الأغلب إلى الناحية السياسية، فإن أكثر المؤرخين يحددونها تبعًا للدولة أو الإمارة، أو العمالة التي في زمنه. وأن أقصى حدود حضرموت - ويمكن أن تسميها حضرموت الكبرى - من عدن غربًا الى عُمان شرقًا وما بين البحر الهندي جنوبًا ورمال الأحقاف شمالًا. وهذا التحديد يشمل بلاد الفضلي والضالع ويافع والعوالق سفلاهما وعلياهما والعواذل وبيحان وجميع الإمارات الغربية التي تدعى بمحمية عدن الغربية، ما عدا لحج والحواشب والعقربي وما تاخمها، وتشمل الواحدي والقعيطي، والكثيري، ومهرة، وظفار. وذلك أيام الخليفة المأمون وغيره ممن تقدمه من الخلفاء، إذ كانت البلاد العربية مملكة واحدة.

وفي كتابه (تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبل الإسلام وبعده) للمؤرخ الروسي (د. سرجيس فرانتسوزوف)، ما نصّه: "ولكن حدود دولة حضرموت التي استمرت في الوجود من القرن الخامس أو السادس قبل الميلاد تقريبًا وحتى نهاية القرن الثالث الميلادي، كانت أوسع بكثير من حدود منطقة حضرموت في العهد الإسلامي. فقد كانت هذه الحدود القديمة تشمل (شبوة) عاصمة المملكة - طوال تاريخها - وضواحيها، وعلى ميناء (قنا) والأراضي الواقعة على طول الشريط التجاري بين قنا وشبوة وعلى بعض مناطق ظفار -المسماة في النقوش القديمة بساكلن- وذلك منذ القرون الميلادية الأولى على أقل تقدير، وحتى على (ردمان) في عصر ازدهار حضرموت القديمة في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي وحتى أوائل القرن الثالث للميلاد". وقد أشارت نتائج أعمال البعثة الفرنسية اليمنية التي أنجزت في عام ١٩٨٧م أن التلال المطلّة على شبوة تحتوي على آثار تدل على أن المنطقة قد سكنت في العصر الباليوليتي (العصر الحجري القديم) وقد عثر على قطع أثرية تعود إلى (العصر الحجري الحديث) حوالي ٤٨٠٠ سنة قبل الميلاد.

في حين أن حدودها المتعارف عليها اليوم هي: من رمال الأحقاف شمالًا إلى البحر العربي جنوبًا ومن سيحوت شرقًا إلى عين بامعبد غربًا وتشمل أراضي السلطنتين القعيطية والكثيرية في محمية عدن الشرقية أثناء الاستعمار البريطاني للجنوب. وبعد الاستقلال في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م، فمحافظة حضرموت هي الإقليم الشرقي من اليمن يحدّها من الشرق محافظة المهرة ومن الغرب محافظات شبوة ومأرب والجوف، ومن الشمال صحراء الربع الخالي ومن الجنوب البحر العربي.

تتكون حضرموت جغرافيًّا من:

١ شريط ساحلي: هو أرض ضيقة تطل على البحر العربي من المحيط الهندي وهو ما أطلق عليه قديمًا اسم الشِّحر وسمّي قسمه الشرقي المشقاص. وهو يطلّ على بحر العرب بطول (٨٥٠) كلم. وتنحدر إلى هذا الساحل من الهضبة الملاصقة له عدة أودية أهمها: وادي ميفعة ووادي حجر الذي يتسع في ميفعة ليشكل دلتا خصبة يغذّيها ماء جارٍ طيلة العام يصب في البحر. يضم الساحل مدينة المكلّا (عاصمة المحافظة)، ومدينة الشِّحر (ميناءها القديم)، ومدينة شحير، وغيل باوزير، والحامي، والدّيس، وبروم، وميفعة، وسيحوت، والغيضة وغيرها، وتتبع الساحل جزيرة سقطرى وتقع في البحر العربي أمام الساحل الحضرمي وهي أكبر جزر الجمهورية اليمنية حاليًا.

٢ الهضبة: وهي المنطقة المرتفعة من حضرموت الممتدة من الغرب إلى الشرق بانخفاض تدريجي من الغرب نحو الشرق. وتعلوها مجاميع كتلية من الجبال والهضبات

في ارتفاعات متباينة تزيد عن ١٠٠٠ متر عن سطح البحر وتسمّى الجول، وتقع الهضبة الجنوبية في اتجاه الساحل وهي الأكثر ارتفاعًا، والهضبة الشمالية في اتجاه الصحراء وهي الأقل ارتفاعًا وبين الهضبتين يقع وادي حضرموت.

٣ الوادي: وهو وادي حضرموت، ويطلق عليه المؤرخون (بلاد الأحقاف). يشق الهضبة الحضرمية باتجاه غرب شرق إلى هضبتين جنوبية أكثر ارتفاعًا، وشمالية أقل ارتفاعًا. ويمتد الوادي من رملة السبعتين بالقرب من مأرب غربًا حتى سيحوت بمحافظة المهرة شرقًا بطول يصل إلى نحو ٩٠٠ كيلومتر ويرتفع عن سطح البحر بنحو ٥٨٠ - ٧٠٠ متر، والوادي يتّسع في بدايته من رملة السبعتين بنحو ٥٠ كيلو متر ويضيق كلما اتجهنا شرقًا ليصل إلى نحو ٧ كيلومتر في منطقة الخشعة ونحو كيلومتر عند مدينة سيؤون ويسمى نهايته بوادي المسيلة. (كما ذكر عوض مبارك بامؤمن - في كتاب الإيلاف في تاريخ بلاد الأحقاف حضرموت)

ويعتبر وادي حضرموت أكبر أودية اليمن ويقع على حافة رمال صحراء الربع الخالي من جهة الشمال ويظل هذا الوادي شاهدًا على آثار حقبة تاريخية غابرة من الزمن كانت زاهرة بالأمطار والأنهار التي اشتهرت بها هذه المنطقة، ويظهر هذا الوادي من الصور الفضائية على شكل أخاديد متشعبة ذات النمط الشجيري للأخاديد، يسمى عند علماء الجيولوجيا بشبكة الصرف المشجّرة وذلك لتشابهها مع تدلّي أغصان الشجر، ومما يميز هذه الأخاديد المشجرة هو أنها الأكثر وضوحًا على مستوى العالم حيث إن هذه الظاهرة نادرة الحدوث أصلًا مما جعلها من الأكثر شهرة بين الجيولوجيين.

ويبدو للوهلة الأولى أن وجود الأودية العميقة غير متناسبة مع كونها منطقة صحراوية جافة إذ إن الأمطار الموسمية مهما كانت كثافتها تظل قليلة ولا يمكنها حفر تلك الأخاديد العميقة. وقد خلص علماء الجيولوجيا إلى أن هذا النمط للوادي هو عبارة عن تكوينات أخدودية تكونت بعد خروج الأرض من العصر الجليدي منذ ثمانية آلاف سنة، حيث أدّى ذلك إلى تحول المنطقة إلى منطقة أمطار شديدة الغزارة، وفي تلك الفترة الطويلة تكونت الأنهار والأخاديد الشجيريّة وكانت الأودية زاخرة بالحياة.

٤ الصحراء: عبارة عن كثبان رملية مسطحة تقع في شمال حضرموت وتسمّى برمال الأحقاف. الممتدة من العبر غربًا إلى رماة شرقًا وهي جزء من صحراء الربع الخالي المحاذي للحدود السعودية، وهي نادرة السيول دائمة الجفاف لا يرتادها إلا البدو الرحّل. والمتتبع لتعاقب الحضارات اليمنية يجد أن الجفاف والتصحّر كان هو المعول الهدّام في مطاردة الحضارات اليمنية من الشرق إلى الغرب، ومن السهول إلى المرتفعات.

المناخ:

فيما يتعلق بمناخ حضرموت فهو مناخ حار جاف صيفًا بمتوسط درجة حرارة لا تقل عن ٤٠ درجة مئوية وأشد السنة حرارة من بداية شهر مايو حتى نهاية شهر أغسطس ويطلق عليها الأربعينية وهي أربعون يومًا تبدأ من ٤ مايو حتى ١٤ يونيو من كل سنة، والشتاء معتدل البرودة غالبًا، وأشد أيام السنة برودة من بداية شهر نوفمبر حتى نهاية شهر فبراير بمعدل درجة الحرارة العظمى ٣٦,٥ مئوية ولدرجة الحرارة الصغرى ١٨,١ مئوية، والرطوبة النسبية ٣٢,٥٪، وغالبًا ما ترتفع درجة الحرارة نهارًا وتنخفض ليلًا وتكون ذات تقلبات مختلفة خلال فصول السنة الأربعة، التي تكون أحيانًا متداخلة مع بعضها بحيث تكون السنة ذات فصلين متميزين حار في الصيف وبارد في الشتاء ويكون معدل هطول الأمطار منخفضًا ويقدر بنحو ٦٩ مم في السنة، ومع ذلك قد يتعرض الوادي لموسم مطري غزير بوقوعه تحت منخفض جوي قادم من البحر العربي. (بحسب عوض بامؤمن)

وغالبًا ما تهطل الأمطار خلال فصلي الخريف والربيع وقد تكون نادرة فيهما، ولكن الوادي يستقبل أحيانًا كميات كبيرة من السيول المتدفقة من المرتفعات والوديان الفرعية تسبب سيولًا عارمة تجري في وادي حضرموت وتحدث كوارث طبيعية تلحق ضررًا بالأرض والإنسان. وبخصوص المياه الجوفية والأحواض المائية فإن الدراسات الهيدرولوجية تشير إلى وجود خزانات من المياه الجوفية تسمح بالتوسع الزراعي إذا ما أحسن استخدام مياه الري وتوقف الحفر العشوائي للآبار حفاظًا على منسوب سطح المياه الجوفية. **وبحسب (روديونوف) فإنه توجد في حضرموت خمس طرائق معروفة للري:**

١ السيول.

٢ الآبار.

٣ الينابيع.

٤ الأمطار.

٥ القنوات.

صورة جوية لوادي حضرموت،
ويظهر في مقدمة الصورة النمط الشجيري المتفرّع
لوادي حضرموت، وهو مجرى نهر جاف وروافده.

حضرموت تضم مدنًا تاريخية بارزة. المكلّا ميناء وعاصمة، تريم مركز علم ودعوة، سيؤون حاضرة الوادي، شبام معجزة عمرانية، الشِّحر بوابة التجارة البحرية قديمًا، وادي دوعن وادي العسل والنخيل، شكّلوا معًا هوية حضرموت.

أهـــــــم
مـــــــدن
حـضـرمـوت

مدينة (المكلاّ)

عاصمة محافظة حضرموت ومركز مديريات ساحل حضرموت والهضبة، وثالث أهم مدينة يمنية بعد صنعاء وعدن. تطلّ المدينة على البحر العربي ويقسمها خور المكلاّ إلى نصفين والذي تم الانتهاء من إنشائه في عام ٢٠٠٦م. يبلغ عدد سكانها ٢٥٩,٤١١ نسمة حسب إحصائية ٢٠١٠م للجهاز المركزي للإحصاء، وسكانها من الحضر وتعدّ مجتمعًا حضريًّا نسبيًّا، بالنسبة لبقية مدن اليمن التي يغلب على أهلها المجتمع القبلي.

كلمة المكلاّ تعني (المرسى) أو (الميناء)، واسمها مشتق من الفعل (كَلَأَ) أي حَفِظَ، والكلّاء هو مرفأ السفن. تسمّى المكلاّ عروس البحر العربي، أُطلق عليها الكثير من الأسماء مثل (الخيصة) و(بندر عمر) إلا أن الاسم الأخير كان أكثرها شيوعًا. تحيط بها مجموعة من الجبال متوسطة الارتفاع بشكل دائري كما يمر من خلالها عدة أودية تصب في سواحلها (وادي حمم، وادي عوّج، وادي الهوته، وادي المسنى، وادي شهورة وغيرها). يقول عنها الرحّالة الألماني (هانس هيلفريتز) عندما زارها بصحبة السلطان الكثيري (عمر بن عوض القعيطي) في عام ١٩٣٢م، وقد شاهدها وهو على ظهر السفينة التي أقلّتهم من عدن إلى المكلاّ بصحبة السلطان وحاشيته، إذ يقول عنها: **"تقع المكلاّ على أحد الخلجان الساحرة، بالقرب من الجدار الصخري الأسود لجبل الكور؛ فهي مدينة بيضاء مشرقة غاية في الجمال، يزينها الكثير من الأبنية والأبراج المرتفعة، فهي مدخل لإقليم حضرموت".**

وللمكلا عشّاق أنشدوا فيها أبياتًا يترنمون بها ويهمسون بلوعة العشاق، منهم عاشق المكلّا الشاعر (خالد محمد عبدالعزيز) في رائعته (بُعد المكلّا شاق) وذلك في مطلع سبعينيات القرن الماضي قائلًا:

يِشْـــتَـاقْ لِك كُلْ عَاشِـــقْ — مِنْ حِين لَاخَرْوَانَا دُوبِ المدَى مُشْتَاقْ
مَا انْسَـى المكـلّا إلى شِـــقْ — ذَا يومْـنَـا في المكلّا سَـيِّد الْعُشّــاقْ
بُعْـد المكلّا شَـاقْ مَا طِـيقْ فِي بُعْـدَها عَالشُّــوقْ
يا النُّوخذَه يَا مَعَاكُم لَوْ هُوْ عَلَى سَنْبُوق مَشْعُوقْ

وفي أبيات أخرى يقول الشاعر العاشق للمكلا (خالد محمد عبدالعزيز):

تَتَحَلّى بِالشِّـــعْــرِ كُلُّ بِــلَادٍ — فَإِذَا قِيلَ فِي المكَــلَّا تَحَــلّى
سَاحِلٌ طَاهِــرٌ وَمَاءٌ طَهُــورٌ — وَبِــلَادٌ أَنَّى وَقَفْــتَ مُصَلّى
هِيَ بِنْتُ المحِيطِ مُذْ كَانَ بَحْرًا — وَهِيَ بَدْرُ السَّمَاءِ إِذْ كَانَ طِفْلاَ

المكلّا ١٩٣٢م -من كتاب (الجنوب العربي المنسي)- بعدسة الرحّالة: هانس هيلفريتز

يعمل أغلب سكان المكلّا في الزراعة وصيد الأسماك وتربية الماشية. وقد كانت قديمًا مرفأً لقوارب الصيد وملجأً للصيادين والسفن المحملة بالبضائع حين تعصف الرياح بقواربهم وسفنهم، كما كانت محطة استراتيجية لنقل صادرات حضرموت من اللّبان والصمغ والعسل والحبوب إلى الشرق (عُمان والهند وإندونيسيا والخليج العربي وغيرها)، وإلى الغرب (أفريقيا ومصر وغيرها).

من أشهر مساجدها: الجامع القديم (جامع البلاد)، ومسجد الروضة، ومسجد عمر (جامع السلطان عمر القعيطي). ومن أشهر علمائها وأعيانها: السيد شيخان بن هاشم السقاف، والقاضي عبدالله بن عوض بكير، والشيخ عبدالله بن أحمد الناخبي والمؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف، وغيرهم كثير.

من أحيائها ومناطقها: (السلام - خلف - الريّان - بويش - الديس - الشفاء - الشرج - بلقيس - فوّه - الستّين - منطقة ٤٠ شقة)، ويوجد في المكلّا مجموعة من الجامعات والمعاهد (جامعة حضرموت، جامعة الأحقاف، جامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا، جامعة الريّان).

تعاقبت على المكلّا عدة حكومات منها (الدولة الكساديّة)، و(الدولة القعيطيّة)، وجمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية، وحاليًّا (الجمهورية اليمنية).

من معالمها الرئيسة: خور المكلّا، وحصن الغويزي، ومقبرة الشيخ يعقوب، وربوة المكلّا، وقصر السلطان القعيطي، وساحل المكلّا.

المكلّا ليلًا - حيث تقبع المساكن والمحال التجارية على جانبي الخور

لوحة لمدينة المكلّا - بريشة الفنان التشكيلي سالم عبدالله بن حمدين
(المصدر: مجلة حضرموت الثقافية - الصادرة عن مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر)

مدينة (تريم)

اختلف المؤرخون في تسمية مدينة (تريم)، قال بعضهم: إنها سمّيت باسم (تريم) أحد أولاد سبأ الأصغر. وقال آخرون: إنها سمّيت باسم قبيلة بحضرموت، وقيل باسم بانيها (تريم بن حضرموت). وقد تولاها السبئيون. وفي أوائل القرن الخامس بعد الميلاد في عهد (حسان بن أسعد) وعهد (حجر بن عمرو) آكل المرار.

أوضح الباحث (خالد سعيد باغوث) في رسالته (الدرر الثمينة في تاريخ مساجد تريم ومعالمها القديمة) أن مؤرخي العرب ذكروا أن مدينة تريم كانت من بين المدن الشهيرة التي يرجع اختطاطها إلى ما قبل القرن الرابع قبل الميلاد، ومما يُؤيد هذا القول النقوش التي عثرت عليها السائحة الإفرنجية (فريا ستارك) في الطرف الشمالي لهذه المدينة في المكان المسمّى (شعاب الهادي).

دخل الإسلام إلى تريم في السنة العاشرة للهجرة حين أرسل الرسول -ﷺ- (زياد بن لبيد الأنصاري) إلى حضرموت ليكون عاملًا فيها، ولما انتقل الرسول -ﷺ- إلى الرفيق الأعلى ارتدّ كثير من المسلمين وذكر المؤرخون أن أهل تريم لم يرتدّوا وبقوا على إسلامهم

تشتهر تريم بالنشاط الديني والأدبي إذ كانت تعدّ مركزًا من مراكز الإشعاع الفكري في جنوب الجزيرة العربية، وتسرّبت الحركة العلمية في تريم إلى مدن شبام والهجرين والشِّحر، كما اشتهرت تريم بكثرة العلماء والأدباء، وولع أهلها بالبحوث والمناقشات الدينية والمناظرات الأدبية.

قام بأمرها ملوك كندة، ثم تداولها بنو قحطان وبنو يماني، ولما ظهر الإسلام كان ملك تريم الصحابي (حجر بن وائل) الذي كاتبه النبي -ﷺ- وفي العصور الأخيرة حكمها السلاطين من (آل كثير).

تزخر تريم بالأسر العلمية ومنهم: آل أبي علوي، وآل أبي فضل، وآل أبي الحب، وآل أبي عيسى، وآل أبي ماجد، وبنو حاتم، وبنو حميد. وتشتهر بكثرة مساجدها التي يقال إنها تزيد على ٣٦٠ مسجدًا. إلا أن المؤرخ (عمر بن علوي الكاف) حصرها في قرابة ١١٩ مسجدًا وذلك بعد البحث الشديد والدقيق، وقد أضاف الباحث (خالد باغوث) أسماء مجموعة من المساجد التي بنيت حديثًا بعد ما ذكره (عمر بن علوي الكاف) في إحصائه وبعض ما نُسي ذكرها، ليبلغ المجموع الكلي لمساجد تريم قرابة ١٦٢ مسجدًا حتى عام ١٤٣٠هـ. ويوجد مساجد أخرى بنيت بعد ذلك ومصليات صغيرة وملحقات للمساجد أيضًا

تجعل من تريم بلدة متميزة بكثرة مساجدها عن بقية بلدات حضرموت مقارنة بسكانها ومساحتها. وتتميز مساجد تريم بالزوايا المعمورة بالخير لتعليم الدروس الشرعية والفقهية وحفظ كتاب الله وتدريسه وتفسيره.

من أشهر مساجدها: مسجد الجامع ومسجد آل باعلوي ومسجد المحضار ومسجد الحداد ومسجد السقاف ومسجد شهاب الدين ومسجد الزهرة ومسجد مولى عيديد، ومعظم مساجد تريم مازالت مبنية من الطين واللّبِن المخلوط بالتبن ولها أساس من الحجارة ومطلية من الداخل والخارج بمعجون الجير الأبيض (النورة)، ولها مآذن عالية تأخذ شكل الإسطوانة أو المستطيل، ولهذه المساجد كثير من الأوقاف من أراضٍ زراعية ونخيل وبيوت سكنية ودكاكين وغيرها من المصارف الخيرية لتغطية مصاريف تلك المساجد والأربطة ونفقاتها.

ساهم أهل تريم بنشر الدين الإسلامي وتعاليمه في الهند وشرق آسيا وأفريقيا، لذا يطلق عليها **العاصمة الدينية لحضرموت**. حيث اشتهرت بكثرة الحفّاظ لكتاب الله فلا يذكر عالمًا أو فقيهًا من أهلها إلا وذُكر في ترجمته **(وُلد بتريم وحفظ القرآن العظيم)** وهذه العبارة أثارت إعجاب أمير البيان الأستاذ (شكيب أرسلان) الذي تمنى أن يؤلف كتابًا في ذلك بعنوان **(الحجر الكريم فيمن ولد بتريم وحفظ القرآن العظيم)**.

من أشهر عائلاتها: عائلة الكاف، وآل باعلوي، وآل بالفقيه، وآل خرد، والعيدروس، وبن شهاب، والعطاس، وبازرعة، وآل بافضل، وآل الخطيب وغيرهم.

يوجد في تريم **أشهر الأربطة والمعاهد العلمية في حضرموت:** رباط تريم للدراسات الإسلامية، ودار المصطفى للدراسات الإسلامية، ودار الزهراء للدراسات الإسلامية (للطالبات)، ودار الكتاب والسنة، ومدرسة دار الفقيه للبنات. ومن معالمها: مسجد المحضار، وقصر الكاف، وقصر المنيصورة.

يذكر (باغوث) أن مدينة تريم عُرفت بعدّة أسماء تدل على شهرتها الواسعة ومكانتها العلمية والتاريخية فمن أسمائها **(الغنّاء)** وذلك لغناها بالعلم والعلماء، ولكثرة أشجارها وبساتينها، وتُسمّى أيضًا **(بمدينة الصدّيق)** -رضي الله عنه- لأن عامله زياد ابن لبيد الأنصاري لما دعا لبيعة الصدّيق؛ كان أول من أجابه أهل تريم ولم يختلف عليه أحد منهم، وكتب للصدّيق بذلك فدعا الله تعالى لهم بثلاث دعوات: أن تكون معمورة، وأن يُبارك في مائها، وأن يكثر فيها الصالحون. ومن أسمائها أيضًا (بلد الطب) ويقصد بها طبّ القلوب وطبّ الأبدان. ويروى أنه وجد في تريم (٣٠٠) فقيهٍ مفتٍ في زمان واحد وكان الصف الأول من الجامع يوم الجمعة كلهم علماء.

وقد قيل في تريم وعلمائها وأهلها كثير من الثناء والمدح والشعر، من ذلك قول عبدالرحمن الخطيب الأنصاري في (الجوهر الشفّاف): **"اعلم أن أهل تريم أهل حُسنِ أمانةٍ وأهل قناعةٍ يرضَون بالقليل من فنون الدنيا، وأهل حياء وتواضع، بريئون عن الرئاسة والكبر ومشهد الزور والخيانة، يكرمون الصالح ويرفعونه على رؤوسهم ولو كان عبدًا. شافعيو المذهب لا يوجد فيها وحولها مذهب غيره قط"**، وصفها العلامة عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف أنها **عُشّ الأولياء ومنبتهم.**

يقول الفقيه الأديب محمد بن أبي الحبّ - في مدح تريم:

بِلَادٌ طَابَ مَسْكَنُهَا وَطَابَتْ	مُبَارَكَةً لَهَا رَبٌّ رَحِيمُ
فَلَو نَظَرتْ فَلَاسِفَةٌ إِلَيهَا	لَقَالُوا جَنَّةُ الدُّنْيَا تَرِيمُ
حَمَاهَا الله مِنْ بَلَدٍ وَأَبْقَى	لَهَا الأَشْرَافُ مَا لَهُمْ مضِيمُ

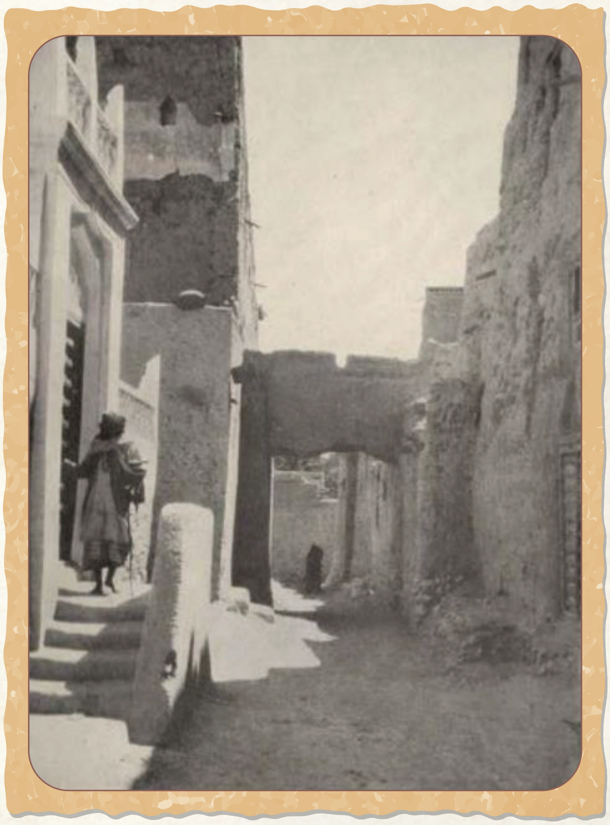

مشهد لشوارع تريم عام ١٩٣٢م بعدسة هانس هيلفريتز

تريم مدينة العلم والعلماء، وعاصمة حضرموت الثقافية

يقول الكاتب (مصطفى بن عبدالرحمن العطاس) في تقديمه لكتاب المؤرخ (عبدالله بن حسن بالفقيه) تحت عنوان (صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت): **"وإذا كان الثقل السياسي والاقتصادي في وادي حضرموت وساحلها ظلّ يدور في العصور المتأخرة مع اختيارات كل دولة حاكمة لعاصمتها، بين تريم وشبام وسيؤون وقيدون في الوادي وبين الشحر والمكلّا في الساحل، فإن مدينة تريم احتفظت بمكانتها العلمية والثقافية وكانت ولا تزال حاضرة العلم والدعوة إلى الله تنبت العلماء والدعاة والعباد والزهاد كما تنبت الأرض الخصبة الزرع المثمر".**

صورة بانورامية لمدينة تريم

مدينة (سيؤون)

تقع مدينة سيؤون في وسط الوادي وهي عاصمة للوادي والصحراء في محافظة حضرموت الداخل. مدينة مزدهرة بالعمران والحركة التجارية وعمارة الوحدات السكنية والمدرسية ووجود الوحدات الصحية والمستوصفات العلاجية والعيادات الطبية، ويسكنها ما يقارب الخمسين ألف نسمة من مختلف فئات المجتمع المدني. كانت عاصمة الدولة الكثيرية وتشتهر مدينة سيؤون بصحة هوائها وكثرة نخلها وزرعها وجودة ثمرها وبعذوبة مائها لذا يقولون: "سيؤون والماء، ولا سمن البقر في شبام". وفيها قصر عظيم للسلطان (الكثيري) والذي يقع على ربوة عالية، بني قبل حوالي ١٠٠ عام بالطين والحجارة يشرف على منطقة السوق ومركز نشاطها التجاري. ويعتبر واحدًا من أروع المتاحف المعمارية في اليمن قاطبة. يوجد بالقصر قاعة للموروث الشعبي، وقاعة للوثائق القديمة الخاصة بالدولة الكثيرية.

يقال إن تسمية مدينة سيؤون يعود إلى امرأة اسمها سيؤون كانت تملك استراحة ومقهى تستقبل بهما المسافرين، بعد ذلك سمّيت المنطقة باسمها تكريمًا لها. يوجد بها مطار دولي، وبعد الاستقلال من الاستعمار البريطاني انتهت الدولة الكثيرية، وأصبحت مدينة سيؤون عاصمة المديرية الجنوبية في المحافظة الخامسة حضرموت. ويسمي أهل سيؤون مدينتهم باسم (سيؤون الطويلة) لامتداد طرفها من مريمة شرقًا إلى وادي شحوح غربًا وعرضها من المطار شمالًا إلى وادي جثمة جنوبًا.

قال عنها الشاعر حسين أبوبكر المحضار:

لِيلة فِي الطّويلة خِيرْ مِنْ أَلْف لِيلة   تفضَّلْ فَضِيلة يَا صَاحِبِ الْمُوتَرْتَأَنْ

ذكر الرحّالة الهولندي (دانيال فان ميولين) وزميله الجغرافي الألماني (هيرمان فيسمان) في رحلتهما لحضرموت عام ١٩٣١م، عندما زارا مدينة سيؤون؛ حيث اعتبراها **"أوسع وأجمل مدينة في حضرموت؛ لما تحويه بيوتها الواسعة من بساتين غنّاء"**. ولقد لاحظ أفراد البعثة أن الطابع الأندونيسي والماليزي يغلب على لباس أهل سيؤون، وأن كلام أهلها فيه كثير من الكلمات الإندونيسية والماليزية.

يوجد بها سوق كبير فيه حركة تجارية نشطة يباع فيه القلادات والأحزمة والخناجر والأقمشة والعسل والحناء والبهارات وغيرها، وتخترق سيؤون سلاسل جبلية وعدد من الأودية الفرعية لوادي حضرموت كوادي شحوح وجثمة ووادي بن سلمان.

من أشهر مساجدها: مسجد الجامع، ومسجد طه، ومسجد القرن، ومسجد باسالم.

قصر السلطان بسيؤون ١٩٣٢م (تصوير هانس هيلفريتز)

صورة ليلية حديثة لمدينة سيؤون ويظهر فيها قصر السلطان الكثيري

صورة تاريخية لخروج المصلين من الجامع الكبير في سيؤون ١٩٣٢م

مدينة (شبام)

ذكر (صلاح البكري) في كتابه (في جنوب الجزيرة العربية) أثناء رحلته لحضرموت قادمًا من مصر في صيف عام ١٩٤٧م أن **"شبام مدينة قديمة بناها قوم من شبوة بعد أن احتربت (حِمْيَرْومِدْحج) وبهم سمّيت شبام**، وهذا هو أيضًا ما ذكره المؤرخ الكبير (الهمداني) في كتابه "صفة جزيرة العرب"، بعد أن كان قد أورد سابقًا في كتابه "الإكليل" أنها سميت شبام نسبة إلى بانيها (شباما) وابنه (الحارث بن حضرموت)، إلا أنه تراجع عن ذلك في كتاب "صفة جزيرة العرب".

وكان الأصل في ذلك (شباه) فأبدلت الهاء ميمًا. ويقول البكري عن أهلها: **"والشباميون مشهورون بالنشاط وحب الحركة والعمل ولذا لا تجد أحدًا منهم يقبع في داره بالنهار، اللّهم إلا المرضى والعجائز، وهذا عكس الحال في سيؤون وتريم".**

تذكر الباحثة (د. منى عبدالله الحداد) أن لشبام أسماء عديدة تعرف بها في الجهة، وبعضها قديم فمنها شبام العالية، الصفراء، أم الجهة، الزرافة -لعلوها-، بيحم، الدمنة.

ومدينة (شبام) تكتسب أهميتها من موقعها الاقتصادي فهي ملتقى لطرق القوافل التجارية. ويوجد في شبام مبانٍ مرتفعة تسمى (مانهاتن الصحراء) وذلك لمبانيها البرجيّة الشاهقة المنبثقة من الطين. سمّتها الرحّالة البريطانية (فريا ستارك) "ناطحات السحاب" وقال عنها الكولونيل المستشرق والباحث والصحفي (رونالد فيكتور بودلي): **"إن هندسة هذه المدن الآن ومن قرون قبل الآن أكثر شبهًا بهندسة نيويورك منها بالهندسة العربية".**

أطلق عليها الرحّالة الألماني (هيلفرتز) اسم **"شيكاغو الصحراء"**، يقول (هيلفريتز): "لم تخلق في نفسي أي مدينة في حضرموت انطباعًا عن ناطحات سحاب مثل ما فعلت شبام. شبام التي تقع في وادي حضرموت في المكان الذي يلتقي فيه وادي حضرموت الرئيس بوادي العين ووادي سر، هي فعلًا شيكاغو الصحراء". أما المستشرق الألماني المعروف (فون فيسمان) فقد سمّاها **"نيويورك حضرموت"**، وعمومًا سمّيت شبام في معظم كتابات المستشرقين والصحفيين بمدينة "ناطحات السحاب"، كما أورد ذلك (د. صالح علي باصرة) في كتابه (دراسات في تاريخ حضرموت الحديث والمعاصر).

أورد (دانيال ميلولن) في رحلته لحضرموت الداخل وعند أول دخوله لشبام وزيارتها قائلًا: "وفجأة رأينا أمامنا شيئًا يشبه السراب، كتلة مربعة رمادية ترتفع عالية فوق الصحراء، ويبدو جانبها الأعلى وكأنه مغطى بالجليد. هناك تقع شبام، نيويورك حضرموت،

وواحدة من أكبر مدنها الثلاث ومركز لتجارتها لقرون مضت. وربما كانت مدينة مهمة حتى في عصور ما قبل الإسلام. وتحمى مزارع النخيل أسوارها العالية من الرمال الزاحفة؛ فهي مخفيّة حتى أن المنظر الخلاب للمدينة العظيمة وهي تلوح في الصحراء يفاجأ الشخص الغريب بعنف وهو يقترب من شبام للمرة الأولى من اتجاه القطن... لا توجد مدينة في حضرموت مصمّمة بمثل هذا الإحكام وبهذه المنازل العالية مثل شبام. مما يعطى ذلك الإحساس الرائع أنها تشبه الكيكة البنية اللون المحلّاة بالسكر. والمدينة مطوّقة بشكل ضيق بجدار عالٍ متين، ومتداخل لحد كبير مع الجانب الخلفي من المنازل".

كما قال (بودلي) عن الحضارمة وعن أهل شبام: **"كان أهل حضرموت رحالة وتجارًا عظامًا، وإن اعتناقهم الإسلام سيسبب انتشاره؛ كما قدّر محمد -ﷺ- خارج جزيرة العرب، وإن هؤلاء النازلين في الدور المرتفعة - يقصد أهل شبام - قد حملوا الإسلام إلى الملايو، وجاوه، والفيليبين"**. ويذكر (إنجرامز) أن القعيطي يصف شبام بأنها: **"عين حضرموت أو عمودها الفقري"**.

يقول الشاعر الشبامي الأديب (محمد عمر عوض باذيب):

إِنَّ المحَبَّةَ يَا (شِبَامُ) تَجِلُّ عَنْ ... وَصْفٍ وَيَسْرُدُ وَصْفَهَا الْرَقْرَاقُ
مَا زِلْتُ أَذْكُرُ يَا (شِبَامُ) أَحِبَّةً ... كَانُوْا وَمَا يَنْسَاهُمُ الْخَفَّاقُ
فَكَأَنّنِي وَكَأَنَّهُمْ وَكَأَنَّهَا ... حَسْنَاءَ يَخْطُبُ وُدَّهَا الْعُشَّاقُ

نالت شبام شرف العضوية في قائمة مدن التراث العالمي التابع لمنظمة اليونيسكو وحصولها على جائزة (الأغا خان) في العمارة الدولية في العاصمة الماليزية (كوالالمبور). من مميزاتها أنها لازالت محاطة بسورولها بوابة تاريخية تعتبر المدخل الرئيس للمدينة، وعدد منازلها قرابة (٥٠٠) منزل، وتاريخ بناء شبام الحالية بما فيه الـ ٥٠٠ منزل ليس موغلًا في القدم، فعمر أقدم بيت في المدينة وهو بيت (جرهوم) لا يتعدى الـ (٥٠٠) سنة، غير أنه توجد بعض الأماكن الموغلة في القدم مثل مسجد هارون الذي يعود تاريخ بنائه إلى سنة ١٧٠ هـ/٦٦٠م، وتتكون منازل المدينة من ٥ إلى ٧ طوابق يخالها الناظر وكأنها ١٤ طابقًا لوجود صفّين من الشبابيك في كل طابق. الشباك العالي الكبير وفوقه شباك صغير للتهوية.

يحيط بالمدينة سور ضخم شُيّد ليكون سدًّا منيعًا يحمي المدينة من هجمات الغزاة ويجنبها الآثار المترتبة عليه، أو الناتجة عن فيضانات السيول. وتتميز البنايات التي تقع على أطراف السور والتي تليها بالتصاقها ببعضها بعضا كأنها كتلة أو بناية واحدة وتربط بينها ممرّات معلّقة صنعت خصيصًا للأغراض الأمنية والاجتماعية.

يوجد في شبام قصران للحكم (قصر آل الكثيري)، والقصر الثاني (قصر القعيطي). كما يوجد بها (٨) مساجد منها مسجد (الرشيد) ومسجد الشيخ معروف باجمال ويسمّى (معروف الهابطي)، ومسجد المقدشي ويعرف حديثًا بمسجد (معروف الطالعي)، وعدد سكان شبام طبقًا لإحصائيات عام ٢٠٠٨م تقريبًا ٧٠٠٠ نسمة. وكانت شبام على مر التاريخ عاصمة الدويلات الصغيرة التي قامت في وادي حضرموت في التاريخ الإسلامي والحديث، وكانت شبام قاعدة لكثير من ملوك كندة ومن قبلهم ملوك حضرموت وأقيال حِمْيَر ومن أشهر ملوكها قيس بن كلثوم السكوني الكندي. واعتنق أهل شبام الدعوة الإسلامية كغيرهم من أبناء اليمن وأصبحت شبام في فجر الإسلام عاصمة لمخلاف حضرموت.

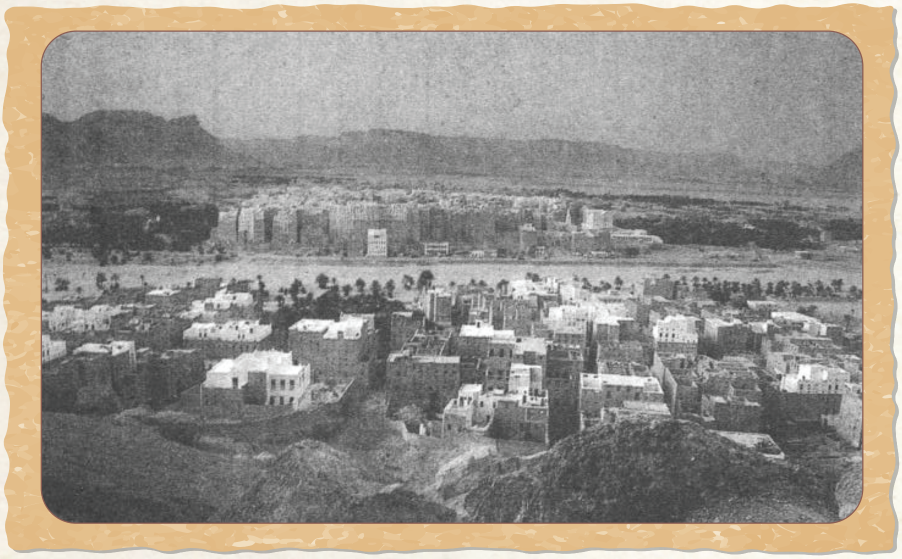

صورة تاريخية لمدينة شبام عام ١٩٣١م

ناطحات السحاب في شبام ١٩٣٢م - (بعدسة هانس هيلفريتز)

منظر عام لمدينة شبام وناطحات السحاب

عبّر الرحّالة (هانس هيلفريتز) عن دهشته بما رآه من إبداع في العمارة عندما زار شبام وسيؤون وتريم في رحلته عام ١٩٣٢م ويقول: "**لقد استحوذت مراكز حضارية مثل روما وأثينا وبابليون، على مركز الصدارة في التاريخ العالمي، ولا تزال حتى يومنا هذا، إلا أنه أيضًا قد اتسعت دائرة تأثير مدن حضرموت متجاوزة حدودها إلى الخارج، إلا أننا لا نعرف إلا القليل عن هذا، كمثل أي شعب أبدع في قدرته وقوته في شخصياته وتاريخه، وكذلك الحال في حضارته، فالرموز الباقية للأجناس البشرية القادمة من عصر ما، والمنسية من وقت طويل هي بمثابة آثار هائلة لكل الأجناس**". ثم يضيف: "**يكاد المرء أن يصف تلك المدن التابعة لحضرموت، بأنها مدن عالمية للفن، لأن ما وجدناه هناك من قدرة صحية ناتجة عن بيئتها الخاصة والمتوفرة في جميع الأنحاء، هناك على الجزيرة العربية، حيث لا يتصور المرء إلا صحراء وسلاسل جبلية جرداء، قد فاق كل توقعاتنا، حيث المباني شاهقة الارتفاع بالصحراء والموجودة منذ أن كانت تعرف أمريكا الأكواخ المتواضعة، فكل واحدة من تلك المدن، من تلك العواصم الكبيرة والصغيرة التي لا يمكن حصرها، يقدم مثالًا معماريًا في أسمى صوره**". ويقول إن شبام هي **أقدم وأعتق وأشمخ مدينة بحضرموت ... فليست هناك أي مدينة من مدن حضرموت تترك انطباعًا واضحًا كمدينة ناطحة للسحاب مثل مدينة شبام الكبيرة**. وفي كتابه (أرضٌ بل ظلال) يقول (هيلفريتز): "إن كان ثمّة شيء يمكن أن يحفّز المستكشف على تجشّم المخاطر والمتاعب في رحلته إلى الجنوب العربي، فذلك هو الأمل في اكتشاف شيء ما عن التاريخ القديم لهذه المنطقة المجهولة، أو يجد مصادفة أثرًا من ذلك الماضي البعيد".

يرجّح (هيلفريتز) وجود علاقة بين البرابرة الذين يعيشون في جبال الأطلس في شمال غرب أفريقيا (في المغرب) وبين عرب جنوب جزيرة العرب، وذلك لما لاحظه من وجود تقارب كبير في المباني الشاهقة المتطابقة تمامًا مع ما رآه في شبام وسيؤون، وكذلك الموسيقى المتشابهة فيقول في ذلك: "**فمسألة تاريخ سلالة البربر، لا يزال غامضًا حتى الآن، فتمثِّل هذه الملاحظات عاملًا مهمًّا في السؤال عن أصل البربر، كما تساعدنا حقيقة أخرى في هذا المقام؛ وهي ملاحظة المنازل الطينية العالية السالف ذكرها في منطقة جنوب جزيرة العرب حيث توجد في جبال أطلس الشاهقة وعلى حافة الصحراء ناطحات سحاب مماثلة بشرفاتها وأسوارها ومنافذها ما يدل على وجود أصل مشترك واضح، فيتساءل المرء كيف أنه من الممكن في نقطتين متباعدتين للغاية من العالم وجود هذه الإبداعات الهندسية المشتركة والعجيبة، وكذا العناية الموسيقية المشابهة بشكل تام، والتي لا يوجد لها مثيل على الإطلاق في الجزء المتبقي من الجزيرة العربية ولا في أفريقيا**"، ويذكر نظرية جديدة من الكاتب والمؤلف العسكري الفرنسي (بول أودينوت) مفادها أن

"البرابرة كنعانيين، قد يكونون هاجروا في عصر مبكر إلى المغرب، على أية حال فإن هذه الاكتشافات والإثباتات في جنوب جزيرة العرب هي بمثابة دليل غير مباشر على أصل البربر المنحدر من أصل آسيوي، وربما هذه هي أهم وأشيق نتيجة توصّلت إليها في بعثتي الاستكشافية هذه إلى جنوب جزيرة العرب".

يصف عالم الآثار البريطاني (جيمس ثيودور بينت) مدينة (شبام) عندما زارها في رحلته لحضرموت بقوله: "تُظهر مدينة شبام مظهرًا فضوليًا عند اقترابك منها: فوق أسوارها الطينية، التي تحتوي على حصون وأبراج مراقبة تظهر بيوت الأغنياء، بيوتًا مرتفعة مطليّة بماء الكلْس الأبيض، مما يجعلها تبدو مثل كعكة كبيرة مغطاة بالسكّر".

الجِمال والجَمال في صورة تجسّد عبق التاريخ

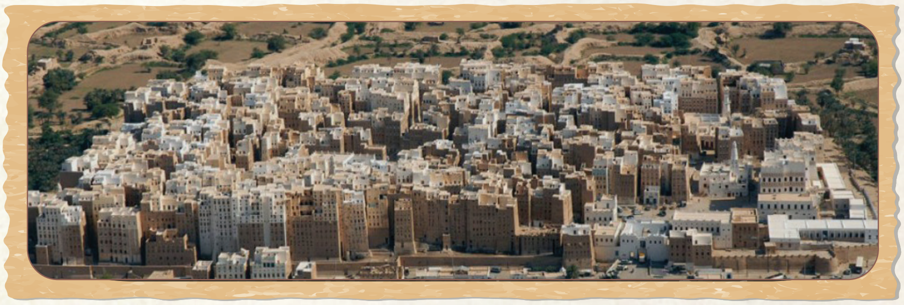

صورة بانورامية لمدينة شبام

مدينة (الشِّحر)

وهي من أشهر أسواق حضرموت ولهذا عُرفت مدينة الشِّحر عند الملّاحين اليونان في القرن الثاني عشر الميلادي باسم (السوق) أي المركز التجاري. وتعدّ (الشِّحر) من الموانئ الكبيرة والرئيسة قديمًا حيث كانت تفد إليها السفن من الهند وسواحل أفريقيا الشرقية ومصر والخليج العربي.

بحسب الباحث (محمد حسين بن الشيخ أبوبكر) من كلية الآداب جامعة حضرموت، فإن الشِّحر لها عدة أسماء منها (سمعون: لأن بها واديًا، يسمى سمعون والمدينة من حوله من الشرق والغرب)، وكذلك سميت (الأحقاف، والأشْحَار). ويقال إن اسم الشِّحر يطلق على البلاد الواسعة.

تقع الشِّحر على منطقة سهلية واسعة بعيدة قليلًا عن المرتفعات الجبلية وعلى ساحل مفتوح لا توجد به رؤوس جبلية في مياه البحر، وتحيط بالمدينة السهول والكثبان الرملية. ومدينة الشِّحر من المدن التاريخية الموغلة في القدم احتفظت بأهميتها الاقتصادية والتجارية بوصفها ميناء رئيسًا على خطوط التجارة العالمية، وهذا الميناء هو الذي أضفى على المدينة هذه الأهمية. وبحسب (أ. عادل باعكيم - الباحث في مركز حضرموت للدراسات التاريخية)، فإن مما يدل على سعة الحركة التجارية وكثرة أعمال الاستيراد والتصدير في الميناء أن قُدِّرت الضرائب المأخوذة من الميناء عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م عينًا ونقدًا ما يقدّر بأربع مئة ألف دينار، وهذا مبلغ كبير في ذلك الوقت.

يذكر العلامة المؤرخ (باحنان) في (جواهر تاريخ الأحقاف) عن الشِّحر: **"وفي جبالها يوجد اللّبان الشِّحري، وفي ساحلها العنبر الشِّحري، ومن غربها ساحل البحر الهندي الذي عليه عدن وعُمان، وفي جنوبها بحر الهند مستطيلة عليه، وشمالها حضرموت كأنها ساحل لها"**. ويذكر المؤرخ الروسي (فرانتسوزوف) أن حكام الشِّحر قد سيطروا سيطرة تامة على جميع تجارة حضرموت سواء البحرية منها أو البرية. لذا ليس من المستغرب أن نقرأ في كتب التاريخ عن تلك المعارك والحروب الضارية التي دارت في المنطقة للسيطرة على هذا المنفذ التجاري المهم خلال الجزء الأكبر من فترة العصور الوسيطة على الأقل ابتداءً من القرن التاسع الميلادي - حتى القرن التاسع عشر.

يذكر المؤرخ الروسي (ميخائيل روديونوف) في كتابه (عادات وتقاليد حضرموت الغربية) مقولة عن الحضارمة مفادها: **"من يملك الشِّحر فقد أمسك بعنق تجارة البلاد كلها"**. وبحسب (سارجنت) فإنه يطلق على من يحكم ميناءها لقب: **(قابض الحنجور) لأنه يستطيع بالسيطرة على الشِّحر أن يخنق التجارة أو أي نشاط خارجي.**

عرفت الشِّحر عند الجغرافيين الكلاسيكيين منذ القرن الأول للميلاد، ويرى بعضهم أن الشِّحر يطلق على ساحل البحر العربي الممتد بين عُمان شرقًا إلى عدن غربًا، ويرى آخرون أن الامتداد الشرقي يبدأ من ميناء مرباط وينتهي بميناء الشِّحر غربًا ويرى فريق ثالث بأن الشِّحر هو ساحل حضرموت، وكانت كل من مكة وحضرموت مع فجر الإسلام ترتبطان بعلاقات وثيقة منتظمة، تجسدت بشكل أكبر في مجالي التجارة والديانة. وبحسب (الناخبي) **فإن أهميتها الحربية والاقتصادية حملت سبأ على المبادرة لجعلها من ضمن ممالكها إذ اعتبرتها مركزًا مهمًا وحصنًا دفاعيًا قويًا، وحكمتها سبأ حتى ضعُف أمرها بعد انفجار السد وتعاقبتها دول كثيرة كحمير والفرس وكندة.**

لقد كان موقعها الجغرافي الاستراتيجي ومكانتها لاقتصادية دافعًا لغزوها من قبل البرتغاليين الذين كانوا يطمعون في التحكم في تجارة التوابل والبهارات التي تصدرها الهند لأوروبا وبشكل أوسع السيطرة على مصادر التجارة الشرقية وإغلاق المنافذ البحرية العربية، فكان أن قامت عدة حملات برتغالية للسيطرة على الشِّحر كونها ميناء رئيسًا، وتعرضت فيه لعدة هجمات غاشمة فقدت فيها الشِّحر نخبة من رجالاتها العظماء وعلمائها الأجلّاء، وتعرضت مراكبها الراسية في الموانئ للنهب والسلب، وبحسب الباحثة (شيخة باشعيب) فقد كان لسكان الشِّحر موقف مشرف وبطولي في مواجهة العدوان البرتغالي على سواحلهم، على الرغم من أن الأوضاع السياسية والاقتصادية لبلاد اليمن كانت مضطربة آنذاك، نتيجة لعدم وجود سلطة واحدة تجتمع عليها كافة القوى السياسية، وكذلك ضعف الإيرادات المالية وسوء الحالة الاقتصادية بسبب الحصار البرتغالي الطويل، إلا أنهم استبسلوا في الدفاع عن مدينتهم وضربوا بذلك أروع الأمثلة في الشجاعة والبطولة. وبدعم من العثمانيين تم تثبيت السيطرة العثمانية على السواحل اليمنية، والتي أصبحت بذلك قاعدة بحرية مهمة عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي، كما تحول هذا البحر بدوره إلى بحيرة عثمانية.

وفي الفترة الإسلامية كانت مدينة الشِّحر وميناؤها نافذة مفتوحة على العالم، فقد كانت القوافل تأتي من جنوب الجزيرة في رحلة الصيف، وتقف في ميناء الشِّحر للحصول على منتجات الشرق، وفي العصور الوسطى والحديثة ظلت الشِّحر عبر مينائها تصدر اللّبان الذي يجلب من أعالي الجبال القريبة من الشِّحر وزيت الأسماك، وذكر (الشاطري) عن أحد المؤرخين مدى براعة أهالي الشِّحر في صناعة الملابس القطنية المطرزة والمزخرفة الجميلة، حيث كانوا يقومون بزخرفة وتلوين الأقمشة البيضاء المستوردة من بلاد الهند باللون الأحمر والأزرق.

يقول الشاعر:

اذْهَبْ إلى الشِّحْرِ وَدَعْ عُمَانَا إلَّا تَجِدْ تَمْرًا تَجِدْ لُبَانَا

كما اشتهروا بصناعة الأسلحة وخصوصًا الأسلحة البيضاء كالسكاكين والخناجر (الجنبيّة)، وكانوا يستوردون مقابضها من بلاد الهند أيضًا، وكانت لطبيعة بلادهم الجغرافية المتميزة وإشرافها على ساحل طويل تأثير كبير في اتجاههم إلى تعلم فنون الملاحة، وصناعة القوارب والسفن لارتياد ذلك البحر.

كانت الشِّحر في وقت من الأوقات من المراكز العلمية، وكان من علمائها الفقيه أحمد بن محمد السبتي الشِّحري، حيث ولّي قاضيًا فيها حتى وفاته، وأيضًا من علمائها إبراهيم بن علي أبي شكيل، ومحمد بن سالم باوزير، والعلامة الفقيه حسين باهراوه الشِّحري وغيرهم.

صور حديثة لمدينة الشِّحر ليلًا

قصر السلطان بالشِّحر ١٩٣٢م - تصوير هانس هيلفريتز

(وادي دوعن)

سيتم إفراد فصل خاص بوادي دوعن مع تفاصيل قُراه وأوديته وعادات أهله وتفاصيل حياتهم.

وادي دوعن ١٩٣٢م - بعدسة هانس هيلفريتز

وادي دوعن حيث يجتمع شموخ الجبال مع سحر الطبيعة
في قلب حضرموت - بعدسة ياسر قنيوي ٢٠١١م

حضرموت تاريخيًا أزدهرت اقتصاديًا، اعتمدت على الزراعة والصيد البحري والثروة الحيوانية والصناعات اليدوية، واشتهرت بالبخور، والتجارة البحرية والبرية، وموانئها المؤثرة، وأسهم أبناؤها في نشر التجارة والثقافة والإسلام.

الأنشطة الرئيسة لحضرموت

من الأنشطة الرئيسة التي يمارسها سكان حضرموت الزراعة والاصطياد السمكي والثروة الحيوانية، حيث تصل نسبة المحاصيل الزراعية إلى (٥٪) من إجمالي الإنتاج الزراعي في الجمهورية، وأهمها التمور والحبوب والمحاصيل النقدية (الذرة والدخن والقمح والبقول والسمسم وغيرها)، والمحاصيل الحقلية (البطاطس والبصل والثوم والجزر والبسباس وغيرها)، وكذلك التنباك (التبغ) المعروف بالحمّي وأيضا اللّبان والصمغ والعنبر الشِّحري والبخور والملح الجبلي من شبوة.

يعدّ قطاع الأسماك الرافد الاقتصادي الأوّل لسكان حضرموت كونها تقع على شريط ساحلي طويل يمتد على شاطئ البحر العربي، ويمتاز بكثرة وتنوع الأسماك والأحياء البحرية فيه، وتضم أراضي حضرموت بعض الثروات المعدنية منها حقول النفط وموارد معدنية أهمها الذهب. ويصوّر (كرامة بامؤمن) هذه الأنشطة الاقتصادية بأسلوب رائع بقوله: **"تتميز تضاريس حضرموت الطبيعية بواد متشعب بين نجدين، وساحل يطل على البحر العربي فيمنح الأول الزرع والضرع ويجود الثاني بنعمة دائمة من الأسماك ذات الأنواع الجيدة. فقام الاقتصاد اليمني على أكتاف القوى المنتجة من الفلاحين والصيادين والرعاة ويشكّل هؤلاء السواد الأعظم من السكان". ثم يضيف: "وشكّلت السناوة (رفع المياه من الآبار بواسطة الإنسان والحيوان) والنخلة ملحمة اقتصادية مفعمة بالتفاعل بين عطاء الأرض وجهد الفلاح. وشكّل البحر بأمواجه الهادرة ملحمة اقتصادية أخرى تميزت بالصراع بين الصياد المغامر وأسراب الأسماك المتدفقة بين الأمواج الصاخبة".**

يعمل قطاع من الأهالي في النجارة والبناء مستفيدين من أشجار السدر (العلب) التي تعتبر صلبة ومتينة والتي تستخدم في بناء أعمدة المنازل وأبوابها، كما يقوم بعضهم بالاستفادة من سعف النخيل لصناعة الحصير والسلل والحبال والمراوح اليدوية وغير ذلك.

كما تشتهر الصناعات الخزفية بشكل واسع وكبير. ويوجد في حضرموت بعض الصناعات المحلية مثل مصانع حرق الجير في شرقي المكلا وغيرها، كما توجد بعض المدابغ في المكلّا وغيل باوزير وشبام، أما صناعة الفضة فتشتهر بها المكلّا والشِّحر. ويستفاد من الثروة السمكية في بعض الصناعات كمصانع التونة والسردين وتصدر زعانف وأذيال أسماك القرش للخارج وهي مطلوبة بشدة في الصين وشرق آسيا للاعتقاد بفائدتها الصحية، كما يتم إعداد كميات كبيرة من اللّخم (سمك القرش المجفف) ويتم تصديره إلى عدة بلدان خاصة دول الخليج إلى جانب أنه طعام من لا طعام له.

كما اشتهرت حضرموت بصناعة النسيج وقد اشتهر أن النبي -ﷺ- كان له بُرْدٌ حضرمي. واشتهرت أيضًا بصناعة الشيال (جمع شال)، وكذلك النعال الحضرمية، والشياذر التريمية التي تعد من أفخر ما يلبسه المرء، ولكن هذه الصناعة انقرضت مع قلّة الطلب عليها لارتفاع ثمنها ودخول ملابس رخيصة من الهند وإندونيسيا وغيرها.

اشتهرت حضرموت قديمًا أيضًا بتربية الخيول وتنشئتها والعناية بها ومن تلك الجياد (هوجل، والقرّاع، ورعشن، والمعلّى) وغيرها كثير، كما اشتهرت بالإبل المهريّة والإبل الصيعرية والإبل الصدفيّة.

ذكر (صلاح البكري) أن الأمطار كانت تسقط كثيرًا في الصيف قبل القرن السادس الميلادي أو قبل أن تَحلّ على بلاد العرب الأزمات المناخية. ولما كانت الأرض هناك صالحة للاحتفاظ بالرطوبة وتغذية النبات بها حتى بعد أن ينقضي موسم المطر؛ تكاثرت الخيرات الزراعية **وأصبحت حضرموت جنّة الله في أرضه.** ولقد تحدث اليونان والرومان عن وفرة ماء حضرموت واخضرار مناظرها وعن بساتين الفواكه وحقول التوابل ونباتات البخور **التي كانت تصدّر من هناك إلى موانئ اليمن ثم إلى شمال الجزيرة وبلاد الرومان.**

فحضرموت لم تكن صحراء قاحلة وأراضي ماحلة، ولم تكن منطقة بدو ورعاة، وإنما كانت هضبة عالية غزيرة الأمطار الصيفية، غنية التربة، تكسوها الأعشاب والنباتات، وأهلها يفلحون الأرض وينشئون المدنيات العريقة المستقرة، ويهاجر ملاحوهم وتجارهم بعيدًا عن بلادهم ينقلون معهم ثقافتهم السامية. **لهذا لم يكن غريبًا أن تصبح حضرموت موطنًا للحضارات والمدنيات المعينية، والسبئية، والحميرية التي استمرت نحو ألف وخمس مئة سنة قبل ظهور الإسلام.**

يذكر الرحّالة (دانيال ميولين) أن حضرموت في عهد الرومان كانت ضمن "اليمن السعيدة"، وأنه لا شك أن حدود مملكتي السبئيين والحميريين قد امتدت حتى وديان حضرموت وعندما انهارت المملكتان اختفى نظام الري الرائع وانتهت الحضارة وانفرط عقد الوحدة، ولم تستطع الشعوب المتحضرة أن تحافظ على بقائها، واحتل أبناء إسماعيل مكانهم. ومنذ ذلك الوقت عانت اليمن وحضرموت من حياة الفقروتحطمت العلاقة المثمرة بين المنطقتين

وقديمًا ذكرنا أن حضرموت عرفت بأنها أرض البخور (اللّبان) فقد عشق الحضارمة البخور وظل ملازمًا حياتهم إلى اليوم فاعتنوا بأشجار اللّبان والمر التي تنمو في المهرة وسقطرى وظفار واستوردوا من الخارج أيضًا مختلف أنواع البخور، وأما الدخون فهو من أطيب الروائح وأزكاها عندما يحرق يتفاخر به الأثرياء ويكرم به الضيوف والزوار ويستخدم في تجمعات المآتم والأفراح حيث يدار على الحاضرين وهو يفوح بدخانه الزكي، وهو طيب الشيوخ والعلماء والفقهاء إلى اليوم كما أورد ذلك (كرامة بامؤمن).

أما الرحّالة الألماني (هانس هيلفريتز) فيعتقد أن الحضارمة يستخدمون اللّبان والبخور لطرد الجنّ والشياطين، فيذكر في كتابه (الجنوب العربي المنسي) أنه **"لا يمكن للجنّ أن يعبث مع مثل هذه الروائح، فهذه المخلوقات تجعل حياة الناس بحق صعبة، أو على الأقل في جنوب جزيرة العرب، فهم محيطون بالفرد على الدوام، لدرجة أنه يجب على المرء الحذر منهم، فإذا ما نسي أحد المسلمين أن يتوضأ في كل مساء قبل الصلاة، فإنه سيصيبه بالفعل روح شريرة، وسيمرض في اليوم التالي، ولن يجديهم نفعًا في هذه الحالة إلا تبخير المسكن بالبخور، والأفضل بالفعل أن يضع المرء كل مساء وعاء البخور على عتبة الباب، وبالتالي لن يتمكن الشيطان من الدخول"**. وهكذا نرى العقلية الغربية تفسر الأمور وفقًا لفهمها المنطلق من ثقافتها ورؤيتها وربما لنيّتها. فهو يصف مرافقه الذي كان موكلًا برعايته والاهتمام بشؤنه من قبل السلطان يصفه في إحدى المرات بأنه **"أحضر إناءً به بخور، فأوقده ثم وضعه تحت الملابس، وكذلك تحت الإبط، وذلك لطرد الشيطان أو الجنّ أو الروح الشريرة بواسطة هذه الروائح"**. في حين أن هذه هي الطريقة التي يتبخر بها الناس في حضرموت وفي سائر الجزيرة العربية ودول الخليج إلى عصرنا الحاضر.

في محاضرته التي ألقاها (صلاح البكري) في القاهرة سنة ١٣٥٣هـ في دار (جماعة التعارف الإسلامي) **ذكر أنه كانت مدينة الشِّحر أعظم ميناء وأكبر مركز تجاري في جنوب بلاد العرب**، فكانوا يأتون من الهند بالدرّ والياقوت والزبرجد والعاج والأطياب وخشب الأبنوس والقطن والتوابل، ومن سواحل أفريقيا الشرقية الذهب والعاج والعطور وريش النعام، ومن البحرين كانوا يأتون باللؤلؤ.

قال الفيلسوف والمفكر اليوناني (بطليموس) إن هذه الأصناف وغيرها من غلّات حضرموت كالبخور واللّبان والمر واللّادن وما إلى ذلك تحملها القوافل من حضرموت وتسير بها شمالًا مخترقة رمال الدهناء إلى نجد، ثم تعطف الى الحجاز، ومن هناك يستلمها المدينيون والأنباط ويذهبون بها إلى مدائن صالح فإلى سلع (بترا)، ومن سلع تسير إلى مصر أو إلى فلسطين وإلى صور وغزة وغيرها من شواطئ البحر الأبيض.

ويذكر (علي أحمد باكثير) عن الرحّالة (ابن بطوطة) في رحلاته إلى الشرق في القرن السادس الهجري مدينة عدن وقال **إنها كانت ميدان صراع عنيف في التجارة بين الحضارمة والهنود، وكان مرفؤها غاصًّا دائمًا بالسفن التجارية المحملة بشتى أصناف السلع والبضائع**. وبحسب الكاتب (أحمد طه السنوسي) عندما كتب في مجلة (الكتاب) المصرية عدد نوفمبر لسنة ١٩٥٠م عن (الثروة الاقتصادية في حضرموت): **"إن الثروة المعدنية البترولية التي ظهرت في حضرموت سيكون لها أكبر الأثر في رقيّ التجارة في حضرموت، وفي استرجاع هذا القطر العربي مكانته التجارية القديمة"**.

وينقل (السنوسي) عن الدكتور (عبدالوهاب عزام بك) قوله: **"إن أهل اليمن وحضرموت والشِّحر هم تجار العرب وأولو السفر والاغتراب منذ العصور الأولى، وهم الذين نشروا اللغة العربية والإسلام في سواحل إفريقية الشرقية وجزائر بحر العرب، وعرّبوا كثيرًا من أقطارها منذ عصور بعيدة، وكانوا صلة بينها وبين الجزيرة العربية".**

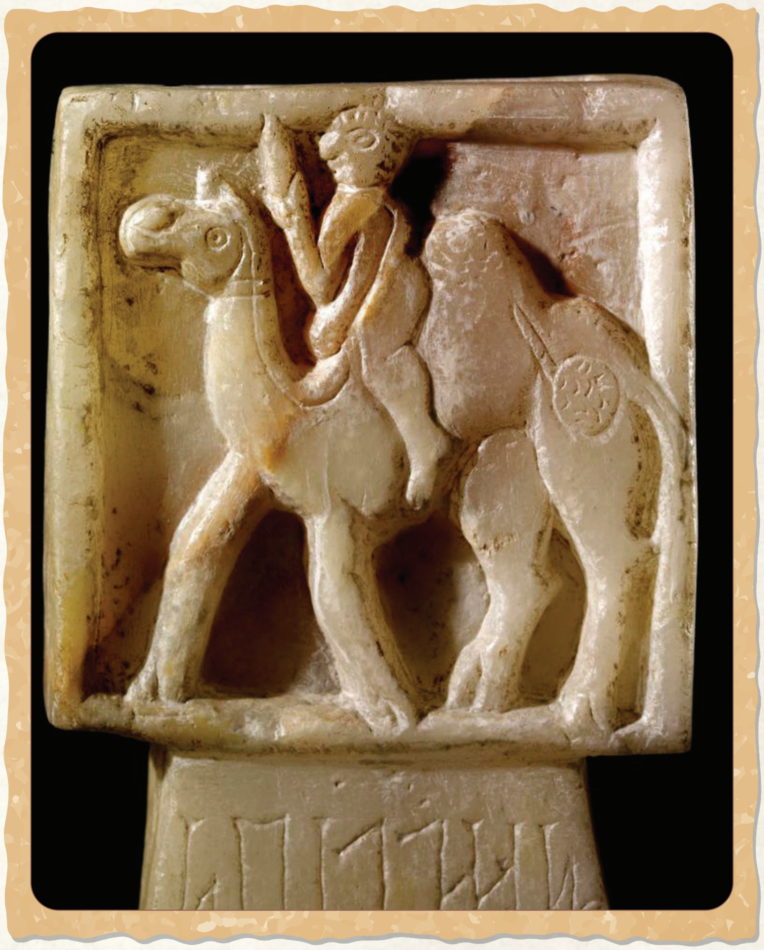

صورة (مبخرة مصنوعة من حجر المرمر) تعود إلى القرون الميلادية الأولى
أُكتشفت في شبوة القديمة (عاصمة مملكة حضرموت) في ذلك العهد
وقام المستشرق البريطاني (هاري سانت جون فيلبي)
عندما كان في حضرموت في حوالي سنة ١٩٣٧م
بإهداء هذه المبخرة للمتحف البريطاني

دخل الإسلام حضرموت سلميًا عبر الوفود، فأنهى الوثنية، ووحّد القبائل، وأسّس الاستقرار، وأرسى فيها العدل، ونشر العلم، وأسهم أبناؤها بالجهاد في الفتوحات الإسلامية، وبناء الدولة وانتقالها إلى حضارة إيمانية فاعلة.

دخــــــول
الإســــــلام
لحـضـرمـوت

لقد كانت حضرموت كغيرها من الممالك والبلدات وقرى جزيرة العرب تدين بالوثنية في عهد الجاهلية وقبل الإسلام، وكان من أصنامهم (مَرْحَب)، و(ذريح)، و(الجَلْسَد) وربما كان لكل أسرة صنم يعبدونه ويتبركون به كما هو الحال في جزيرة العرب. ذكر أهل السير والتاريخ أن (عمرو بن لحي الخزاعي) كان أول من أدخل الأصنام إلى مكة من الشام، وأمر الناس بتعظيمها وعبادتها، وعلى هذا اتخذت كثير من قبائل العرب في الجزيرة العربية فيما بعد أصنامًا لها تعبدها وتعظمها من دون الله. ففي اليمن اتخذت قبيلة همدان صنمًا لها يقال له: (يعوق) وحمير اتخذت (نسرًا)، وهذا لا يعني عدم وجود ديانات أخرى في حضرموت حينئذ، بل كان من أهلها من يدين باليهودية أو النصرانية، وكان فيها من يعبد الشمس من دون الله أيضًا. فقد كان ملك كندة (قيس بن معد يكرب) والد الأشعث يهوديًا، وكما يقال: "الناس على دين ملوكهم".

يذكر المؤرخ (الحامد) أن اليهودية كانت لحمير وكندة وبني الحارث بن كعب وكنانة أيضًا. أما النصرانية فدخلت عن طريق فرقة من (بني الحارث بن كعب) سكان نجران الذين نزلوا ناحية حضرموت وقد كان أهل نجران نصارى. أما عبادة الشمس فقد ذكر المؤرخ (أبو الحسن الهمداني) أنها كانت في أهل البراري من المهرة، وأنهم كانوا يعظّمون الشمس ويسجدون لها، وفي قرية (ريبون) الأثرية والتاريخية بوادي دوعن اكتُشف بها معبد للقمر قديم جدًّا يرجع تاريخه إلى ما قبل ميلاد المسيح بعهود غير قصيرة. ويذكر (كرامة بامؤمن) أن الحضارم قبل الإسلام عبدوا الأصنام والكواكب الثلاثة (الشمس والقمر والزهرة)، وكانت تخصص لها المعابد والكهنة والسدنة وتقدّم لها النذور والقرابين.

يذكر المؤرخ (بامطرف) أنه عندما بعث الله النبي محمدًا -ﷺ- سنة (٦١٠) للميلاد، كانت أقاليم اليمن مشتّتة وغير خاضعة لحكم مركزي واحد، وكان أهل كل ناحية قد ملّكوا عليهم رجلًا منهم. وكذلك كان الحال في مختلف المناطق الحضرمية، وكانت هجرته -ﷺ- إلى المدينة المنورة سنة ٦٢٢ ميلادية.

وما أن بُعث النبي -عليه السلام- في مكة حتى بدأ الناس في جزيرة العرب يتناولون بالحديث أخبار ذلك الفتى القرشي الذي يدعو لدين جديد، ويظهر أن القبائل من حضرموت وكندة مثل بقية قبائل العرب التي تغدو إلى مكة وتروح سواء في أعمال التجارة أو الحج قد سمعت بمبعث النبي -ﷺ- إضافة إلى أن بعضًا منهم قد عرف عن هذا الدين من كتب الأقدمين التي عرفت بينهم في زمن الجاهلية. وتذكر بعض كتب السير أن النبي -ﷺ- عرض نفسه على قبيلة كندة عندما أتت للحج، ولكن كندة لم تُسلم حينئذ، ويرجّح أن السبب في ذلك حرصهم على الزعامة والملك، وسبب آخر لعله يتعلق بأن إسلامهم سيؤثر في علاقة الصداقة والتجارة والمصالح الأخرى كالتحالفات القبلية

مع قريش، ولهذا لم يكونوا مستعدين في بداية الأمر للتضحية بذلك حتى انتشر الإسلام، وقويت شوكته، وضعفت قريش، وسمعت العرب بذلك.

في السنة العاشرة من الهجرة وبعد الفتح واستتباب الأمور للنبي محمد -ﷺ- أرسل رسول الله -ﷺ- رسلًا وكتبًا إلى شرق الجزيرة وغربها، وشمالها وجنوبها، يدعوهم للدخول في الإسلام، وكان من تلك الرسل أن بعث (خالد بن الوليد) إلى اليمن، فبقي ستة أشهر، ثم بعث (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه، وقرأ عليهم كتاب رسول الله -ﷺ- فأسلمت (همدان) في يوم واحد، ولما بلغ رسول الله -ﷺ- دخول همدان في الإسلام سجد لله شكرًا على ذلك. ثم تتابع أهل اليمن في الدخول إلى الإسلام.

مع بزوغ نور الإسلام تبدّلت حضرموت وكأنها كانت تنتظر الفرج وتشتاق لغوث نور الهداية الربّانية، فأقبلت وأرسلت الوفود بمجرد سماعها بأن محمدًا -ﷺ- قد انتشرت رسالته ودخلت معظم جزيرة العرب في دين الإسلام، وذلك بعد أن ظهر أمر النبي -ﷺ- على قريش في مكة ومن جاورهم، وظهر أمره على اليهود في المدينة وخيبر، بل وذهب متّجهًا لغزو الروم في تبوك، فاهتزت لهذه الانتصارات بلاد العرب كافة. وكانت سنة عشرة من الهجرة تسمّى سنة الوفود، ومنها تلك الوفود التي وفدت على النبي -ﷺ- من حضرموت.

استبشر نبي الله -ﷺ- بدخول اليمن في دين الله أفواجًا وطواعية ودون حرب أو معاناة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله -ﷺ-: **"الإِيمانُ يَمَانٍ والحِكْمَةُ يمَانِيَة"** رواه البخاري ومسلم. تبدّلت أحوال أهل حضرموت واليمن عمومًا منذ دخول الإسلام إليها وانتقلت من عهود التناحر والتشاجر والقتل والفخر بالأنساب والعصبية إلى عهد الأخوة والمحبة والمساواة والسلام. كما يذكر ذلك (عبدالقادر الصبّان) في كتابه "الحركة الأدبية في حضرموت". ويضيف: **"فانصرف الشعراء عن كثير من أبواب الشعر. انصرفوا عن التشبيب والغزل والمدح والهجاء وإثارة النعرات والاعتزاز بالقبيلة، وجال التفكير في أودية أخرى كمدح الرسول -ﷺ- والحث على الدين وذلك بمقياس مقيّد. وانشغل الناس بالجهاد وتأسيس الأمّة وتتبع آيات القرآن وتثقفها والتوقف عندها عِضةً وبيانًا وتشريعًا وحكمًا وترغيبًا وترهيبًا، وكانت الحالة الأدبية تلقفًا وتمتعًا وأخذًا وتحصيلًا وتفهمًا ووعيًا".**

أشهر وفود حضرموت للمدينة المنورة:

١ وفْد الأشعث بن قيس الكندي:

سيد من سادات كندة، وهي قبيلة عظيمة من قبائل العرب واليمن الكبرى، اشتهرت في الجاهلية والإسلام وكانت قد قامت لها مملكة في القرن الرابع الميلادي في الجزيرة العربية

بين إمارتي المناذرة والغساسنة على الطريق التجاري الذي يربط جنوب شبه جزيرة العرب بشمالها الشرقي، وقد كانت تعرف مملكة كندة لأن ملوكها كانوا يعرفون بلقب الملوك، وتروي كتب التاريخ أن كندة هي أول قبيلة سكنت الأحقاف بعد عاد الأولى، وكان الأشعث أميرًا من أمرائها المعروفين بالفصاحة والشجاعة، كان أبوه قيس ملكًا عظيم السلطان، وكان صاحب ثروة وكرم وشهرة واسعة، قصده الشعراء ومدحوه وأثنوا عليه. ولما جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجًا، كان الأشعث بن قيس رئيس أكبر الوفود الحضرمية التي قدمت على النبي - عليه السلام - في السنة العاشرة من الهجرة، فقد تحدث التاريخ بأن الأشعث تجهّز في ثمانين راكبًا – وقيل ستين راكبًا - من قومه اختاروا لهم أجود إبلهم وأقواها.

وبينما كان النبي - عليه السلام - ذات يوم في المسجد بين أصحابه يتحدث إليهم كعادته، أقبل الاشعث في ركبه الفخم يشق شوارع المدينة لا يفارقون ظهور إبلهم حتى وصلوا المسجد فأناخوها بفنائه ودخلوا على النبي -ﷺ- في أحسن هيأتهم. فبالغ النبي -ﷺ- في إكرامهم والحفاوة بهم.

ولم يشأ الأشعث أن ينصرف إلى حضرموت حتى يربط هذه الزيارة التاريخية بصلة متينة فخطب (أم فروة بنت أبي قحافة) أخت أبي بكر الصديق - رضي الله عنه، ولم يتردد الصديق في قبول هذه الخطبة إذ كانت بمعرفة النبي - عليه السلام - وموافقته، وبذلك أصهر الأشعث إلى قبيلة تيم القرشية وإلى كبير المسلمين وأكثرهم حظوة عند رسول الله -ﷺ- وصاحبه في الغار، وهي بعد ذلك عمّة أم المؤمنين وزوج رسول الله عائشة الصديقة بنت الصديق، ولكن زواجه لم يتم بها إلا في السنة الثانية عشرة من الهجرة بعد وفاة رسول الله -ﷺ- وفي خلافة الصديق - رضي الله عنه. وقد عاشت معه أم فروة طويلًا وولدت له محمدًا، وإسحق، وأم قريبة، وحبانة.

شهد الأشعث اليرموك بالشام. والقادسية وغيرها بالعراق. وسكن الكوفة كسائر كندة وأشرافها وشهد مع علي -رضي الله عنه- معركة صفّين. وكانت وفاته بعد مقتل الإمام علي -رضي الله تعالى عنه- بأربعين ليلة، وصلّى عليه الحسن بن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنهم.

يقول عمرو بن معدي كرب الزبيدي عن الأشعث يمدحه:

وَالأَشْعَثُ الكِنْدِيُ حِينَ سَمَا لنَا ... مِنْ حَضْرَمَوتَ مُجَنَّبُ الذُكْرَانِ
قَـادَ الْجِيَـادَ عَلَىَ وجَـاهَا شُزَّبًـا ... قُـبَّ البُـطُـونِ نَوَاحِـلُ الأَبْدَاَنِ

٢ وفْد وائل بن حُجر بن ربيعة بن وائل بن يعمر الحضرمي:

كان وائل بن حُجر الحضرمي قيلًا من أقيال (ملوك) حضرموت، وكان أبوه من ملوكهم. وفد على رسول الله -ﷺ-، وكان رسول الله -ﷺ- قد بشّر أصحابه بقدومه قبل أن يصل بأيام، وقال: **"يأتيكم وائل بن حجر من أرض بعيدة، من حضرموت، طائعًا راغبًا في الله ـ عز وجل ـ وفي رسوله، وهو بقية أبناء الملوك"**. فلما دخل عليه رحّب به وأدناه من نفسه، وقرّب مجلسه وبسط له رداءه، وأجلسه عليه مع نفسه، وقال: **"اللهم، بارك في وائل وولده"**. واستعمله النبي -ﷺ- على الأقيال من حضرموت وأقطعه أرضًا في المدينة. ويظهر من كتب السير أن وفد وائل بن حجر بن ربيعة قد وفد إلى المدينة قبل وفد الأشعث الكندي، ولا يستبعد أنهم وفدوا في أوقات متقاربة. وقد أحضر وفد حضرموت بقيادة وائل بن حجر معهم بعض الهدايا للنبي -ﷺ- ومما يذكر أن وفد حضرموت (وفد وائل بن حجر) قد وفدوا للمدينة وعلى رسول الله -ﷺ- بعد أن أسلموا، في حين أن وفد كندة (وفد الأشعث الكندي) أسلموا بعد وفودهم على رسول الله -ﷺ- ويستدلون بالحوار الذي جرى بينهم وبين رسول الله -ﷺ- كما عند بن سعد في الطبقات. أما عند (باحنان) في (جواهر الأحقاف) فإنهم وفدوا مسلمين.

ثم توالت الوفود من أنحاء حضرموت من (الصدف) و(تجيب) وكذلك من (جعف) وهم سكان وادي جردان من حضرموت وغيرها من الوفود. وقد أثنى النبي -ﷺ- على أهل اليمن، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- أنه قال: "أتاكم أهلُ اليمنِ، هم أضعفُ قلوبًا، وأَرَقُّ أفئدة، الفقهُ يمانٍ، والحكمةُ يمانيَّةٌ" رواه البخاري ومسلم. وفي هذا الحديث مدح النَّبي -ﷺ- أهل اليمن؛ لمسارعتهم إلى الدّعوة، ومبادرتهم إلى قبول الإيمان؛ فإنّهم استجابوا للإسلام بدون محاربة، وقد كانوا دائمًا أهل مدد للمسلمين في جميع الحروب والفتوحات.

انتشار الإسلام في حضرموت:

انتشر الإسلام في أنحاء البلاد الحضرمية بعد عودة الوفود، وحلّ الدين الجديد محل الأديان التي كان الحضارم يدينون بها، فقد كانت الأغلبية منهم وثنية كغيرهم من العرب. وكانت هناك أقليات تعتنق اليهودية أو النصرانية. وأقبل الصحابي (زياد بن لبيد الخزرجي الأنصاري) عاملًا على حضرموت من قبل النبي - عليه السلام - فأقام في تريم وتارةً في شبام، وأمدّه النبي -ﷺ- بالصحابي الجليل (معاذ بن جبل) يطوف بأرجاء البلاد يعلّم الناس القرآن ويفقههم في الدين، وأقام (زياد بن لبيد) عنه نوّابًا في أنحاء القطر يجمعون الصدقات، وكان (زياد بن لبيد) يوزّع صدقات الأغنياء على الفقراء ويرسل ما فضل عن الحاجة إلى المدينة. وتوفي الرسول -ﷺ- و(زياد بن لبيد) بتريم، وبايعه الناس بالخلافة لسيدنا أبي بكر الصديق – رضي الله عنه.

وبذلك استقبلت حضرموت عهدًا جديدًا في ظل الإسلام خلعت فيه حياة الجاهلية وعبادة الأوثان، وانصرفت إلى توحيد الله وعبادته وتطبيق أحكام الدين الإسلامي راضية مطمئنة.

وبعد وفاة الرسول -ﷺ- ارتدّ من ارتدّ في حضرموت كما حصل في معظم الجزيرة العربية وثبت الأكثرية على الإسلام، وكانت الردة في حضرموت كما يذكر صاحب كتاب (الإفادة في معرفة الصحابة من كندة وحضرموت) هم إما مانع للزكاة أو متعصّب لقبيلته على هوى منه لا أقل ولا أكثر، وكانت كندة ممن دخل في نطاق الامتناع عن دفع الزكاة وانحياز قوم منهم عصبية مع بني قومهم. ومنهم من وقف مع الإسلام وشرائعه ضد القبيلة، وهذا لا يمنع من القول إن هناك من ارتد بعد وفاة رسول الله -ﷺ- بل وحتى قبل وفاته وفي مرضه -ﷺ- كالأسود العنسي الذي ارتد عن الإسلام بالكليّة ورجع إلى جاهليته واستهزأ بالإسلام وبالنبي -ﷺ- ومعه ثُلّة من أهل اليمن من مريديه ومصدّقيه. وقد حارب أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- المرتدين على ذلك فرجع أغلبهم إن لم يكن جميعهم وقُتل الأسود العنسي في صنعاء وانفضت جموعه وهلك أكثرهم.

خريطة توضح إرسال الجيوش لمحاربة المرتدين ومنها عدة جيوش لحضرموت

قام الحضارم بعد ذلك بدور كبير في الفتوحات الإسلامية فظهر فيهم القادة والفاتحون أمثال (الأشعث بن قيس الكندي) فاتح (نهاوند) و(أذربيجان) وأميرها، وكان الأشعث من

أوائل المتجهزين لقتال الروم وقد شهد وقعة اليرموك ومعركة القادسية وشهد مع علي بن أبي طالب معركة صفين. كما كان من المجاهدين المشاركين في الفتوحات الإسلامية وفي معركة اليرموك وفي فتح العراق (شرحبيل بن حسنة الكندي)، و(المقداد بن الأسود الكندي) في فتح العراق وغيرهم كثير. يذكر المؤرخ الروسي (سرجيس فرانتسوزوف) أن في الحملة التي قامت من المدينة تحت قيادة (سعد بن أبي وقاص) لفتح فارس كان هناك ٢٨٠٠ مقاتل يمني ضمن أربعة آلاف مقاتل هم قوام الجيش المذكور. ومن بين هؤلاء اليمنيين كانت هناك فرقة من حضرموت والصدف، يبلغ تعداد أفرادها ٦٠٠ محارب. وأخرى من السكون ويبلغ تعداد أفرادها ٤٠٠ مقاتل، وشارك ١٧٠٠ محارب يمني بزعامة (الأشعث بن قيس الكندي) في موقعة القادسية سنة ١٥هـ / ٦٣٦م. وكان القسم الأكبر من هؤلاء المحاربين ينتمي على الأرجح إلى القبائل والبطون الكندية الحضرمية. وشاركت القبائل الحضرمية أيضًا في فتح الأندلس وكان لها تأثير قوي على مجريات الحياة السياسية لهذه المنطقة.

كما كان لأهل حضرموت وكندة واليمن دور في موقعة صفّين مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وكان منهم في صف معاوية بن أبي سفيان، وكان لهم دور في التحكيم كالأشعث بن قيس الكندي وآخرون، وكان الأشعث بن قيس في طليعة من دعا إلى التحكيم؛ من كراهيته لقتال أهل الصلاة.

خضعت حضرموت منذ أن أكرمها الله بالإسلام لحكم المدينة في عهد النبي -ﷺ- ثم أثناء حكم الخلفاء الراشدين. ولما آلت الخلافة إلى معاوية بعد مقتل الإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وصُلح الحسن بن علي -رضي الله عنه- خضعت حضرموت لسلطان بني أمية ثم لحكم بني العباس.

يذكر المؤرخ (الشاطري) أن حضرموت انقلبت انقلابًا تقدميًّا عظيمًا بدخولها الإسلام، فزالت الفوضى الضاربة أطنابها وتوقفت الغارات وحروب النهب وما يترتب عليها من أضرار، وكُسرت الأوثان ومعابد الأصنام ومُنعت الخمور وتلاشي الفجور وطبّقت التعاليم الإسلامية وعمّ العدل والرفاهية بتوزيع الزكاة توزيعًا عادلًا، وبما يتحصلون عليه من الغنائم من الفتوحات التي شاركوا فيها. وانتشر الأمان واتسع العمران، وهكذا وحّد الإسلام قوى القبائل الحضرمية العربية فوجّهها إلى الكفاح والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله وحفظ الكيان العربي والإسلامي، بدلًا عمّا كانت موجّهة ضد بعضها البعضٍ. يقول المؤرخ والباحث الأمريكي (صمويل زويمر) عن مدى تمسك أهل حضرموت بدينهم واعتزازهم به **"شيئًا واحدًا لن يتغير في حضرموت هو كلمة الله. كما بلّغها للناس نبيهم من قبل، وأعتقد بنفسي أنه إذا اتبعوا روح إيمانهم، فلن يصيبهم مكروه".**

اشتهر الحضارمة عبر التاريخ بالتدين والاعتدال، والأمانة وحبّ التجارة، مع الذكاء والمثابرة والتعاون المجتمعي، والشخصية المستقلة أينما هاجروا، كما حافظوا على ارتباطهم بالوطن، ونالوا احترام الجميع لنبل أخلاقهم.

بماذا يمتاز الحضارمة؟

يتميز الحضارمة سواء من هم بداخل حضرموت أو من هاجروا منها بعدة صفات منها:

١ **التدين والاستقامة:** من ذلك المحافظة على الصلاة واحترام الوالدين وكبار السن والأمانة والسلوك الحسن.

٢ **الاعتدال في العيش:** في المأكل والمشرب واللباس والاقتصاد في الصرف والإنفاق، بعيدين عن المظاهر والخُيَلاء.

٣ **التعاون والتضامن فيما بينهم:** ماديًّا ومعنويًّا واجتماعيًّا.

٤ **تعلّقهم بمهنة التجارة:** كونها مصدرًا جيدًا للرزق، بل هي تسعة أعشاره، وهم يمتلكون مقوماتها الأساسية (الأمانة والصدق والذكاء الاجتماعي والتدبير).

روى العلامة علوي بن طاهر الحداد في كتابه (الشامل في تاريخ حضرموت) نقلًا عن العلامة الفقيه (عثمان بن عبدالله بن عقيل ابن يحيى) وصفًا مختصرًا لحضرموت وأهلها حيث يقول: **"وطِينتها من أجود ما يكون للزراعة. وبيوتها متّخذة من مَدَر، ونورة، وجصّ. وأجود خشبها الدر، ثم الإثل. وسكانها عرب، ملّتهم الإسلام، ومذهبهم شافعي، ولم يكن فيهم مبتدع. فمنهم السادة العلويون، وهم من ذرية سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب، سبط رسول الله، ومنهم مشايخ، بعضهم منسوبون إلى بعض الصحابة، وبعضهم بيت أهل العلم والصلاح، ومنهم قبائل من العرب، وهم شاكّين الأسلحة لحفظ بلدانهم، وغير ما ذكر من أرباب الصنائع، وأسباب معيشة الكل منهم غالبًا: التجارة والزراعة، وعقاراتهم غالبًا: الأراضي والنخيل، ومواشيهم: الإبل والبقر والخيل والحمير، واقتياتهم: البُر، والذرة، والتمر. وإيدامهم: اللحم، والسمن، واللبن، والعسل، وفواكههم: الرطب، والعنب، والتين، والرمان، والنبق. ومن طباعهم الأمانة، حتى سكان الجبال منهم، ولهم الميل الكلي إلى التجارة، والمروءة، والعفاف عن المسألة، والمكافأة على الجميل، وعدم الدخول فيما لا يعني"**

يقول (عبدالله عمر باوزير) العضو السابق في المجلس المحلي لمحافظة حضرموت: **"إن الحضارمة ليس مجرد تجمّع بشري كمّي محصور داخل جغرافية إقليم حضرموت: بل دورٌ، وثقافةٌ، ونشاطٌ اقتصادي تجاوز حدود المكان عبر متغيرات الأزمنة وأحداثها التي لم تزده الأحداث ومتغيراتها المتراكمة غير التميّز بشخصية ذات مواصفات قيّمة".**

لقد أشار الرحّالة والمؤرخ السويسري (جون لويس بركهارت) في رحلته إلى الحجاز في النصف الأول من القرن التاسع عشر بأن **"العِرق الوحيد الذي عرفته مثابرًا من بين أهل شبه الجزيرة العربية هم الحضارمة"**، وقد أكد التقرير الذي أعدّته القنصلية الفرنسية في جدة في القرن التاسع عشر الميلادي، **"أن معظم تجار جدة هم من أصل**